الفصل الثالث

عبد العزيز بن سعود الأول

obeikandl.com

عبد العزيز بن سعود الأول

بعد وفاة والده لم تكن المسؤوليات الإدارية والعسكرية جديدة على إمام الدرعية الجديد الذي وقع على عاتقه كامل مسؤولية الحكم. برز «عبدالعزيز» أول ما برز كجندي شارك في حملتين ضد حاكم الرياض «دهام بن دواس» تمت بقيادة أمير العيينة ووالد زوجته «عثمان بن حمد بن معمر» عام ١٧٤٨. وولد في هذا العام نفسه أكبر أبنائه «سعود» الذي ترعرع ليصبح خليفته في الحكم. وفي عام ١٧٤٦ قاد أخوه «عبد الله بن محمد» قوة توجه بها لمساعدة «منفوحة» التي كانت قد تعرضت لهجوم وحوصرت من قبل «دهام» الذي تراجع بعد أن جرح مرتين وأصيب فرسه بضربة قاتلة. كانت تلك أول مجابهة بين الدرعية والرياض منذ فجر الحركة الوهابية في العام المنصرم. كانت تلك بداية حروب متعادلة ومتكافئة حدثت بين المنطقتين في نهاية فترة تولي «عبد العزيز» الحكم في الدرعية عام ١٧٦٥.

وبالمناسبة، وكما أشرنا سابقاً، تجدر الإشارة إلى أن العلاقة بينه وبين والد زوجته مرت بفترة برود إبان الحملة الثالثة ضد «ثرمدا» عام ١٧٤٨، والتي تم إجراء الهجوم عليها (بالرغم من احتجاج عبد العزيز) وسط ظروف تشير إلى تواطؤ أو فتور في قضية تبناها «عثمان» بمحض إرادته قبل عامين، وقد تبلورت هذه الشكوك عام ١٨٥٠ عندما تم اغتيال «عثمان» في أحد مساجد «العيينة» بعد صلاة الجمعة على يد رجال مقربين إليه وموثوق بهم.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح «عبد العزيز» مشغولاً بنشاطات عسكرية متواصلة موجهة نحو هدف أو آخر، علماً بأن معظمها كان موجه ضد حاكم

الرياض، ولم تمض فترة قصيرة حتي تنازل «محمد» الملك الطاعن في السن عن قيادة القوات السعودية لابنه «عبد العزيز».

نشد «دهام» ولأكثر من مرة السلام من السعوديين الذين كادت هجماتهم أن تجهز عليه. وحدث أيضا أن خرق «دهام» ولأكثر من مرة شروط أكثر من هدنة حصل عليها بسبب موافقته الرمزية على السلطة السعودية. وها هي الظروف مواتية تماماً لاختياره العام الذي تسلم فيه «عبد العزيز» السلطة ليزيح عن كاهله مجدداً نير الدرعية ويستأنف القتال والهجمات ضد «منفوحة» وبالتعاون مع «زيد بن زامل» حاكم «الدلم والخرج». هاجم «عبدالعزيز» الرياض وأحرز موطئ قدم في بعض أبراجها قبل أن يجبر على التراجع بفعل هجوم معاكس. في تلك الأثناء كان «عبد الله بن محمد» يشن هجوماً على حلفاء «دهام» من قبيلة «الصبي» وأحرز عليهم بعض التفوق، وأثناء ذلك الهجوم أيضاً أرسل «عبد العزيز» حملة ثانية لتعزيز الضغط على الرياض، إلا أنه تم إبعادها عن الرياض ومطاردتها بسهولة.

وهكذا تعاقب النزاع الذي رافقته حملات مزعجة تمت بين الحين والآخر تخلل ذلك النزاع غزوات من الدرعية ضد حلفاء «دهام» من البدو المقيمين في صحراء «العرمة» أو في واحة «حاير السبيع» في أطراف «منفوحة» عند نهاية وادي حنيفة.

وفي ربيع عام ١٧٧١ تمت مهاجمة قبيلة «سبيع» وحوصروا في بلدة «الحاير» واستمر الحصار إلى أن استسلموا وأقسموا يمين الولاء لزعيم الدرعية. ولم يكن لذلك الترتيب أن يستمر وسط الوضع السياسي السائد آنذاك، فتفاقمت المشكلات وبلغت ذروتها في خريف العام نفسه عندما

وصل «عبد العزيز» إلى بلدة «عرقة» وهو في طريقه لشن هجوم آخر ضد الرياض عقب هجمة قصيرة صغيرة، أخبره بعض عسسه عن قدوم «دهام» على رأس قوة من الفرسان والجمال لتهاجم القرية. وعندما شاهد «دهام قوة الدرعية سارع إلى التراجع، فطارده «عبد العزيز» في العديد من مناطق الصحراء، وتمت مطاردة اثنين من أبناء «دهام» وهما «دواس» و «سعدون» وألقي القبض عليهما وذبحا كما ذبح معهما في جوار بئر «فوارة» عدد كبير من أتباعها. وكان ذلك الحدث ضربة عنيفة لكبرياء وشهامة «دهام». وعندما أراد «عبد العزيز» اختبار قوته في أواخر ربيع عام ١٧٧٣ تمكن من الوصول من جديد إلى «عرقة. وهناك وصلت إليه أخبار هروب عدوه من الرياض. وعلى الفور واصل المسير ليصل إلى المدينة في عصر ذلك اليوم وليجدها عملياً خالية من سكانها.

تمكن «دهام بن دواس» من الهرب آخذاً معه نساءه وأولاده وحاشيته، لأنه أجرى ترتيباته سراً تحت جنح الظلام ولم يخبر أحداً بنواياه إلا بعد أن أصبح جاهزاً للرحيل، عندها قال: آه يا أهل الرياض، ها أنا أقاتل كل هذه السنوات ضد «ابن سعود» والآن قد تعبت من القتال وتخليت عنها لصالحه.. من أراد أن يتبقى فليفعل ذلك، ومن لا يريد فليبقى في مكانه. تبعه معظم الناس ومنهم من خاف وهرب إلى الخرج تحت أشعة الشمس الحارقة ووسط حر صيف الصحراء الملتهب باعتبار أن ذلك حدث في منتصف حزيران، ولذا مات العديد منهم بسبب الجوع أو العطش.

دخل «عبد العزيز» المدينة المهجورة وأغلق جميع أبواب منازل المدينة خوفاً من سرقة محتوياتها، وأرسل قواته إلى مطاردة الفارين فنكلت بهم.

وعليه انتهى القتال الذي دام لمدة عشرين عاماً سقط خلالها حسب القائمة التقديرية حوالي ٤٠٠٠ رجل من كلا الطرفين، وكان منهم حوالي ٢٣٠٠ رجل من أتباع «دهام»، وظهر مثل شاع في «نجد» وعلى مدى سنوات عديدة لاحقة مفاده أنه عندما يقوم شخص بعمل أحمق تتم مقارنته مع هرول «دهام» من الرياض. لكن لا يستطيع المرء أن يقاوم الإحساس بأن «دهام» كان رجلاً ذو طابع بطولي، إذ كان مصراً مثيراً وبثبات على القتال من أجل حرية العرب، كما كان منافسوه من الدرعية مصرين على فرض شريعة الله لتحل محل ممارساتهم الوثنية. خاض «دهام» قضية خاسرة لكن الانهيار المفاجئ لمواقفه الدفاعية جاء بالدرجة الأولى إلى موت ولديه في كارثة مفاجئة وقعت في العام المنصرم، ولا بد أن يكون ذلك الحدث قد أتى على عقل رجل مسن أنهكته مشكلات ظهرت على مدى سنوات عمره. كان قد مضى على وجود «عبد العزيز» في السلطة عند وقوع ذلك الحدث حوالي ثماني سنوات، وهي مدة كانت أطول بقليل من مدة أقرانه من الزعماء في مناطق العرب.

وبغض النظر عن انشغاله المتواصل بقضية «دهام»، لم تشهد تلك السنوات سوى أحداث طفيفة لا تذكر: فتمت مهاجمة «ثرمدا» عام ١٧٦٦، لكن معركة «الصحن» حققت انتصاراً لم تدم أهميته لفترة طويلة. وشهدت السنوات اللاحقة سلسلة من الغزوات البسيطة كان أبرزها الحملة التي أعدت ضد واحة «العودة» في «سدير»، والتي قادها ابن أخ الإمام ويدعى «هذلول بن فيصل»، الذي كان والده قد قتل في معركة حدثت ضد «دهام» عام ١٧٤٧. ورافقه في تلك الحملة «سعود» الابن الأكبر لـ

«عبدالعزيز» الذي كان قد بلغ من العمر آنذاك تسعة عشر عاماً وكانت تلك أول تجربة له في حملة عسكرية من ذلك القبيل. وكان مع الحملة أيضاً بعض المبعدين من «العودة» والذين ينتمون إلى الأسرة الحاكمة للبلدة سابقاً، وكانوا يسعون إلى ترجيح أو استعادة زعامة قائدهم «منصور بن عبد الله بن حمد». تمكنت تلك الحملة وبسهولة من إلحاق الهزيمة بالمغتصب للسلطة، وتم ذبحه وعاد «منصور» حسب الأصول المرعية زعيماً للواحة.

حدث في هذا العام أيضاً أن انضمت أقاليم «الوشم وسدير» إلى سلطة الدولة السعودية، وأدوا يمين الولاء إلى «عبد العزيز» وإلى الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» الذي كان في ذلك الوقت (في الواقع منذ بداية حركته) قد أخذ وضعية لا يمكن تمييزها عن وضعية شريكه في الحكم، ويقال - وبالتحديد - إن «عبد العزيز» لم يتخذ أي إجراء دون مشاورة الشيخ «محمد بن عبدالوهاب». على أي حال ومع انضمام هاتين المنطقتين وتحالف «العيينة» و«منفوحة» تمكنت الحركة الوهابية من تحقيق تقدم ملحوظ في طريق التوسع الذي أوصل الحركة على مدى ثلاثة العقود اللاحقة إلى أبعد ما يمكن أن تصل إليه أحلام الأمير وأحلام الشيخ اللذان تظافرت جهودهما لإيجادها، وبالنسبة لهذه المرحلة فقد كان الهاجس الرئيسي للكيان السعودي هو التغلب على آثار المجاعة القاسية التي عرّفها التاريخ المحلي باسم «السقى» جفت خلال تلك المجاعة الآبار وارتفعت فيها تكلفة العيش، وأودى الجوع والمرض بحياة العديد من الأشخاص، في حين اضطر عددا آخر للهجرة من «نجد» والتوجه إلى «البصرة والزبير والكويت». وبعد فترة الجفاف هطل مطر غزير إلا أن أسراب الجراد حالت دون بذر حبوب الدخن ومحاصيل العلف المتعادة الناس عليها في مواسم الصيف.

مر «سعود» عام ١٧٦٨ بأول تجربة له في قيادة حملتين بشكل مستقل، سارت الأمور على ما يرام مع الحملة الأولى التي توجهت للنيل من الزلفي الواقعة في الحاضرة الحيوية من «القصيم»، في حين كان بداية الحملة الثانية (المعدة ضد منطقة «المرة» في الرمال الجنوبية) جيدة، إلا أنها انتهت بتراجع قوات «سعود» بسبب تعزيزات البدو التي وصلت لنجدة أصدقائهم. وهناك تعرضت قوات «سعود» لبعض الخسائر والإصابات، ومات في تلك الواقعة «ناصر بن عثمان بن معمر» الذي على ما يبدو كان من الممكن له أن يخلف «سلطان بن محسن المعمري» كزعيم على «العيينة» قبل بضع سنوات، ولا تتوافر لدينا معلومات موّثقة عن ذلك التغيير المحتمل.

على إثر هذه النكسة أرسل «سعود» للتدخل في المشكلات المحلية بالقصيم، وجاء ذلك الإجراء بناءً على طلب من «حمود الدريبي» حاكم «بريدة» الذي كان على عداء مع أهل «عنيزة» وحدثت معركة خارج إحدى بوابات «عنيزة» لم تسفر عن أية نتيجة معينة، لكن تكبد الفريقان بعض الخسائر، علماً بأن عبد الله بن حمد بن زامل (الذي كان حاكم البلدة آنذاك) كان من بين القتلى. وفي العام التالي وإثر الحملات التي قادها «عبد العزيز» شخصياً ضد «المجمعة» و «الهلالية» غرب عنيزة أعرب سكان «عنيزة» عن إذعانهم للحكم السعودي، لكن هذه الخطوة لم توقف استمرار المؤامرات المحلية فقد تمت الإطاحة بأمير بريدة «راشد الدريبي» وبعد عام طردته عائلة آل عليان من البلدة. كان «عبد العزيز» في تلك الفترة مشغولاً بغزو قام به وراء حدود الصحراء العربية بالمعنى الضيق للكلمة، واضعاً نصب عينيه «الظفير والمحمرة» التي يقطنها البدو على الحدود العراقية كهدف له. وفي

الطرف الآخر من الصحراء العربية كان «عبد العزيز» يجري مراسلات مع شريف مكة «أحمد بن سعيد» وبناءً على طلب هذا الأخير أرسل «عبدالعزيز» واحداً من كبار المشايخ ويدعى «عبد العزيز بن عبد الله بن حسين» ليشرح له مبادئ الدعوة السلفية. وفي الوقت الذي وصل فيه هذا الشيخ إلى هناك كان قد حصل تغيير في قيادة مكة، فقام أفراد من أسرة «أحمد» نفسه بالإطاحة بشريف مكة وعينوا مكانه ابن أخيه «سرور بن مساعد»، ولعله من غير المهم مناقشة تفاصيل هذا اللقاء الذي على ما يبدو أسفر عن إعلان صدر عن مشايخ مكة يدل على كامل رضاهم لعرض الشيخ لمبادئ الدعوة السلفية وهي مبادئ أسمى من النقد أو الاعتراض.

لم يكن «عبد العزيز» ليرتاح من عناء نضاله الطويل ضد «دهام» حتى برز أمامه خطر جديد وأفدح من خطر «دهام» جاء ذلك الخطر من جهة الشرق ومن المرجح أن يكون مصدر ذلك الخطر هو توغله غير المسوغ أو المبرر نحو الحدود العراقية. وخلال ربيع عام ١٧٧٤ سار «عريعر بن دجين» أمير الأحساء ورئيس قبيلة «بني خالد» بقواته نحو «القصيم» لمهاجمة «بريدة». تمكن «عريعر» من الاستيلاء عليها بعد حصار قصير ونهبها قبل أن ينسحب منها باتجاه وادي الرّمة متوجهاً نحو «الخيبة والنبقية» المجاورتين. وهناك قدمت إليه وفود مشجعة من عدة مناطق في «نجد» والتي على ما يبدو انبهرت باستيلائه السريع على «بريدة» كما انبهرت بضخامة وعدد قواته. وكان «عريعر بن دجين» يعد العدة لشن حملة ضد «الدرعية» والمناطق المجاورة لها، لكنه أصيب بمرض مفاجئ وداهمته المنية في شهر آيار، أي بعد شهر على انسحابه من «بريدة»، وخلفه في الحكم ابنه الأكبر «بطين» الذي كان عاجزاً عن ضبط القوات والسير بها من أجل تحقيق أهداف والده الراحل.

هذا، وبالرغم من الهبات السخية التي كان «عريعر» يوزعها من الأموال المخصصة للحملات، إلا أنه اضطر للرحيل إلى الأحساء. وهناك قام أخواه «دُجين وسعدون» بشنقه حتى الموت. خلفه «دُجين» في الحكم لكنه توفي بعد ذلك بفترة وجيزة، ويقال إنه مات مسموماً بسم دسه له أخوه «سعدون» الذي أصبح أخيراً أميراً على الأحساء وزعيماً للقبيلة.

في تلك الأثناء استمر «سعود بن عبد العزيز» في غزواته، وكانت أولاً باتجاه «الخرج» بعد ذلك ضد «الزلفي» لكن دون تحقيق نتائج مؤثرة، بالرغم من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانت تنتشر في كلا الاتجاهين. أرسل أهالي «الحريق» وأهالي «عام» وأهالي منطقة «المجمعة» وفوداً لتعلن عن ولائهم للنظام الحديد، لكن لم يصدر عن «الخرج» أية تصرفات تجعلها تسير باتجاه ذلك التحالف، إلا أنه بعد الزيارة التفقدية الثانية التي قام بها «عبد العزيز» عام ١٧٧٥ تآمر «زيد بن زامل» زعيم «الدلم» مع زعيم «وادي الدواسر» المدعو «هويل» من الوداعين إضافة إلى زعماء آخرين من المناطق الجنوبية على أن يطلبوا المساعدة من قبائل «نجران» لدرء وصد اعتداء سلطة «الدرعية» عليهم. ولتحقيق هذه الغاية جمعوا مبالغ طائلة من المال ليوزعوها على زعماء القبائل المعنيين. وفي الوقت المناسب تحولوا إلى جيش جرار مؤلف من سكان الواحات ومن قبائل «يام» وساروا إلى «العارض». انضمت إليهم فيما بعد قوات من «الدواسر والخرج» ووصل المتحالفون إلى «حاير السبيع» وهناك عاثوا فساداً في واحات النخيل وقتلوا حوالي أربعين من المدافعين عنها وواصلوا سيرهم نحو «ضرما» وهناك وبين واحات النخيل جُوبهوا بمقاومة عنيدة ومنوا بخسائر جسيمة وأجبروا أخيراً على

الخروج منها بالقوة. في تلك الأثناء قرر المتحالفون التخلي عن حملتهم والعودة إلى ديارهم. وفي الوقت نفسه اضطر «زيد بن مشاري بن زامل» الذي ترك عرضة للهجوم، لعقد صلح مع «الدرعية» والدخول في التحالف مع السلطة الدرعية. كان «سعود» في تلك الأثناء مشغولاً في حملة استهدفت «بريدة»، تمكن من إجبارها على الاستسلام وفرض «عبد الله بن حسن» من «العيينة» أميراً جديداً عليها. من الممكن أن يكون هذا الأمير الجديد قد حل محل «راشد الدريبي» الذي سبق وأن طرد من البلدة، لكن يبدو أنه عاد وتسلم زمام الأمور بعد فترة وجيزة من ذلك.

في أوائل ١٧٧٦ قام أهالي الأحساء الأصليون، وفي مقدمتهم مواطنون من الهفوف، بمحاولة غير ناجحة استهدفت التخلص من سطوة «بني خالد» وزعيمهم «سعدون». وفي الوقت نفسه تعاظمت قوة الحركة الوهابية بانضمام «الزلفي ومنيخ المجمعة» إليها، علماً بأن زعيم «الدلم» ندم على تصرفه السابق وأقدم على ذبح أحد الشخصيات الحماسية المؤيدة للدولة السعودية. اتخذ «عبد العزيز» إجراءً فورياً لضبط الوضع هناك، الأمر الذي حدى بـ «زيد» إلى الهروب وأعفي عنه فيما بعد لاستسلامه وخضوعه للدرعية، لكنه لم ينصب على الإمارة التي أعطيت إلى «سليمان بن عفيصان». في هذه الفترة أعربت بلدة «اليمامة» المجاورة عن خضوها وإذعانها للدولة السعودية، علماً بأن زعمائهم كانوا على اتصالات مع عناصر ساخطة متمردة في «الدلم» كانت تعمل على تحدي الحركة التصحيحية. كان «زيد بن زامل» زعيم ذلك العصيان المسلح الذي أجبر «ابن عفيصان» على الخروج من «الدلم» آخذاً معه أفضل الحاميات المخلصة

له. استعاد «زيد» الإمارة ورتب مع «حسن الدلم» زعيم «اليمامة»، وخطط للقيام بثورة عارمة في الإقليم وتم ذلك الترتيب أثناء غياب «عبد العزيز» لغزو «المرة» مجدداً. وفي الوقت الذي تجمع فيه البدو لصد الغزاة، كان «عبد العزيز» قد استولى على عدد كبير من جمالهم التي كانت في المرعى. تمكن البدو من إجبار قوات الدولة السعودية على التقهقر إلى مضايق «عقبة الضيقة» في مرتفعات «محيرك الصفا» وهناك أنزلوا بها خسائر فادحة في الرجال والجمال، وكان بين القتلى أمير بريدة «عبد الله بن حسن العليان» الذي لم يمضي على تعيينه في ذلك المنصب إلا فترة وجيزة.

توجب على «عبد العزيز» في تلك الفترة أن يتعامل مع مشكلة الخرج، وعليه أرسل «سعود» إلى ذلك الإقليم لاستكشاف أوّليّ ولتحري الوضع في منطقة اليمامة. وهناك تصادم «سعود» مع الجماعات المسلحة المحلية التي كانت عائدة من حملة استكشاف أو من غزو. احتدم بين الطرفين في منطقة يقال لها «مجرى السهبا» قتال شرس وانسحب الفريقان كل إلى ديرته بشكل يحفظ ماء وجهيهما. أرسل «عبد العزيز» منادياً ينادي بضرورة جمع كل جنده للقيام بمحاولة جادة لتسوية مشكلة الخرج بشكل نهائي. وعندما أصبحت الحملة جاهزة للبدء في مهمتها احتج أمير حرمه «عثمان المدلجي» لدى الإمام وقال بأن إمارته بحاجة إلى تُلقّن درساً مفيداً أكثر من حاجة الخرج إلى ذلك الدرس، ذلك لأن أهالي منطقته كانوا قد خرجوا عن طوعه وبدأوا يهزأون بشكل علني بمبادئ الدين الإسلامي، ولم يعد في وضع يمكنه من ممارسة صلاحياته كحاكم في تلك المنطقة. ناشد عثمان السلطات في الدرعية على أن يرسلوا فرقة قوية على الفور للتعامل مع الوضع في

«حرمة» وطلب أن تساق بعض الرهائن إلى «الدرعية» لضمان حسن سلوك البلدة مستقبلاً. استجاب «عبد العزيز» لمناشدته وأرسل أخاه «عبد الله بن محمد» ليعالج المشكلة هناك.

قاد عبد الله جيشه عن طريق ممر «الحيسية» وسهول «الحمادة» ليعطي بذلك انطباعا بأنه كان متوجهاً إلى «القصيم» ومن ثمّ أقفل راجعاً عن طريق أخدود «الغاط» باتجاه السهل ووصل إلى نقطة الهدف تحت جنح الظلام ليقوم بالتوزيع الضروري لقواته داخل وخارج البلدة استعداداً للهجوم في وقت الفجر.

كان الناس في تلك الأثناء ينعمون بنوم هادئ إلى أن عكرت الطلقات التي أطلقت بوقت واحد من قبل كل رجل يحمل سلاح صفو أحلامهم. ولم تكن هناك على ما يبدو أية إمكانية للمقاومة، كما لم يكن هناك مجال للهروب لذا هرع الناس إلى «عبد الله» ليستفسروا عن سبب تلك الأحداث، فطمأنهم بأنه لا داعي للخوف وقال بأن أميرهم اشتكى للإمام عن سلوكهم غير المتدين وعن تصرفاتهم الثورية ضده. لذلك كان من الضروري أن يزور البلدة وأن يدعو أربعة من قادتهم للتوجه إلى «الدرعية» كرهائن لضمان حسن تصرف الأهالي مستقبلاً، وأضاف أنه إذا قبل الأربعة بما فيهم «عثمان» القدوم معه بهدوء فستسير الأمور على ما يرام وستنصرف الحملة. وتم تركيب كل شيء بهدوء دون حدوث أية إصابات، وأدى الأهالي مجدداً قسم الولاء للحكم السعودي، ورافق «عبد الله» أربعة أشخاص متوقع منهم أن يعكروا صفو الأمن، وتوجهوا إلى «الدرعية» ليبقوا هناك كضيوف على الإمام. استأنف الإمام عملياته ضد «الخرج»

وأوكلها هذه المرة لـ «عبد الله بن محمد» الذي لم يقم سوى بمناوشات مبهمة حول منطقة «الدلم».

قبل أن تعود إلى «حرمه» أعمال التحريض على الفتنة والعصيان خطط زعمائها مع «حمد بن عثمان التويجري» أمير «المجمعة» لاغتيال أميرهم «عثمان بن عبد الله» واعتقال أصدقائه المتدينين من «المجمعة» الذين اعتادوا أن يزوروه للتباحث في أمور الدين. كما خططوا لأخذهم كرهائن ليوازوا بهم كفة زعمائهم الأربعة المحتجزين كرهائن في «الدرعية». سار الجزء الأول من الخطة بشكل حسن، ووصل المتدينون كعادتهم وجلسوا في قاعة الاستقبال، وأرسل وراء «عثمان» الذي كان في أحد واحات النخيل التابعة له. وفي طريقه إلى البيت كمن له أخوه «خضير» وقتله وقام ابن عم لهم يدعى «عثمان بن إبراهيم» باعتقال الضيوف المتدينين وربط أيديهم وأرجلهم وأغلق عليهم أبواب قاعة الاستقبال. إلا أن الجزء الثاني من الخطة والذي يشتمل على احتلال «المجمعة» بالتواطئ مع أميرها، فشل بسبب حادثة تميزت بالفضول وقعت عندما وصلت القوة المرسلة من «حرمه» إلى «المجمعة». فقد حدث بالصدفة أن كان قائد الحركة واقفاً خارج بوابة قلعته ومعه عدد من اتباع الدولة السعودية المحترمين الذي استشعروا عند رؤية الرجال المسلحين يتجهون نحوهم رائحة مكيدة ما، فسارعوا بالدخول إلى القلعة ومعهم الأمير وأوصدوا الأبواب. وفي هذه الظروف، لم يكن بإمكان الأمير أن يخدع نفسه ويستجيب لنداء أصدقائه في الخارج، فسارع الأهالي في تلك الأثناء إلى اتخاذ مواقعهم، وعاد الغزاة أصحاب الخطة إلى ديارهم فاشلين.

توجه ابن الأمير على عجل إلى «الدرعية» لينقل الأخبار، وجاء «سعود» على جناح السرعة ليعالج الوضع هناك. وبعد بضعة أيام من الحصار والقتال المتقطع استسلمت «حرمه» ووافقت على تسليم سجناء «المجمعة». ومما يستدعي الدهشة أن «سعود» وعد بأن إطلاق سراح رهائن «حرمه» المحتجزين في «الدرعية». وعندما أرسل في طلب أمراء «المجمعة» و«جلاجل» الذين كانوا عملياً أناس بسطاء ناهيك عن أنه كانت هناك شكوك قوية حول مشاركتهم في خطة مصممة لتنفذ أكثر بكثير مما تم تنفيذه. ويمكن أن يكون ذلك الإقليم على حالة أفضل بكثير لو تم استبعادهم، وفعلاً تم إقصاء الأميرين عن ديرتهما ومعهم أسرهم ومؤنهم وأبعدا إلى «القصيم وشقراء» على التوالي. وفيما بعد وجدوا أيضاً أنه من الأفضل نقل «سويّد» أمير «جلاجل» المخلوع إلى منطقة أكثر أمناً في «الدرعية».

عُين «ناصر بن إبراهيم» (أخو أحد قاتلي «عثمان») أميرا على «حرمه» ووضع إقليم «سدير» برمته، وكذلك إقليم «منيح» بما فيها المجمعة وحرمة «عبد الله بن جلاجل» الذي كان من أقرباء «السويّد» وجُعلت «جلاجل» مقراً للقيادة.

وهكذا عاد «سعود» إلى ديرته وأصبح «عبد العزيز» مجدداً متفرغاً في معالجة الوضع في «الخرج»، وعليه سار إلى «الدلم» في الوقت الذي كان فيه «زيد بن زامل» في «اليمامة». باشر «عبد العزيز» بالهجوم بشكل مندفع وحدثت اشتباكات خارج البلدة نفسها، وسارع «زيد» على عجل بجمع قوة لنجدة إخوته أبناء البلدة وكونه وجد الطريق إلى البلدة مسدوداً بسبب المعارك، ألقى بقواته في هجوم على معسكر الوهابيين الذي صادف أن كان «عبد العزيز» بنفسه موجوداً فيه ومعه المؤونة والجمال الخاصة بالحملة. قاوم

«عبد العزيز» الهجوم بضراوة وخسر المدافعون حوالي عشرين رجلاً إضافة إلى عدد من الجمال وذلك قبل أن تدرك القوة الرئيسية في البلدة ما كان يحدث في مؤخرتها. أوقف الغزو على البلدة في الحال وأخلت القوات البلدة لتتوجه لنجدة المعسكر. استغل «زيد» الهدوء الذي سبق العاصفة ودخل البلدة، وسحب «عبد العزيز» أثناء ذلك قواته إلى واحة «نعجان» المجاورة. حيث الحق بها خسائر قبل أن يعود مرة أخرى منتصراً إلى الدرعية.

وفي ربيع عام ١٧٧٨ قدم «سعدون بن عريعر» أمير الأحساء إلى الخرج ليتفاوض مع «زيد بن زامل» وحلفائه من أجل التوصل إلى التحالف ضد الحكم الوهابي. ولسبب ما لم تشرحه المصادر التاريخية قرر أن يتوصل إلى تفاهم مع «عبد العزيز» الذي سرعان ما وافق على اقتراح للتوصل إلى معاهدة سلام.

لم يعقد في الواقع أي لقاء فعلي بين الزعيمين المتنافسين، إلا أن «سعدون» مر في منطقة «بنبان»(*) وهو في طريقه إلى مناطق مياه «مليدة»(**) الواقعة بالقرب من «مجزل». وسواء كان ذلك نقضاً لمعاهدة السلام أم لم يكن، بدا «سعدون» متوتراً حيال احتمال قيام «الدرعية» بهجوم ما عليه، وقرر على عجل العودة إلى الأحساء بالرغم من قيظ شمس الصحراء في شهري حزيران وتموز. وفعلاً أودى ذلك الحر بحياة العديد من ماشيته من الغنم والجمال. وفي بداية العام التالي ١٧٧٩ حدث تآمر بين أهالي «حرمه والزلفي» استهدف الترتيب لهجوم على «المجمعة» التي أصبحت في تلك المرحلة تحت سلطة الدولة السعودية وتضم حامية من

(*) من قرى الرياض، وفيه إمارة تبيعها موارد للبادية من إمارات.

(**) مليداء واحة بالقصيم وبها جرت معركة مشهورة بين الملك عبدالعزيز وبين محمد ابن الرشي سنة ١٣٠٨هـ.

قواتها. قام أهالي «حرمه» بالخطوة الأولى واحتلوا الأبراج المطلة على واحات أشجار النخيل الشاسعة حول البلدة. وهبت الزلفي بكامل قوتها لمساعدتهم، وبعدها وصل «سعدون» إلى الموقع على رأس جيش مروّع.

في حين تمركز أهالي المجمعة في بلدتهم وقلعتهم لمقاومة الحصار، جال المهاجمون وصالوا في واحات النخيل، وقطعوا الأشجار وتركوا جمالهم وماشيتهم ترعى في محاصيل الأهالي. كان أمل الأهالي الوحيد هو وصول النجدة من الدرعية، لكن سرعان ما تضاءل ذلك الأمل ووصل إلى حد إرسال رسالة إلى «سعدون» يقترحون عليه عقد هدنة من أجل إجراء مفاوضات تتعلق باستسلامهم، في تلك الأثناء علم الأهالي بأن «حسن بن مشاري بن سعود» كان على رأس قوة من الدرعية في منطقة «جلاجل» التي كانت في ذلك الوقت عاصمة الإقليم، وكان يعد العدة لإنقاذ المجمعة. أرسلت قوة صغيرة لكنها مشكلة من رجال أشداء في محاولة لاختراق خطوط العدو والدخول إلى القلعة تحت جنح الظلام، ويبدو أن تلك القوة تمكنت من التسلل دون أن يشعر بها أحد، وأسدلوا الحيال من أسطحة القلعة لتساعد جماعتهم على الدخول. فقد الأعداء المحاصرين للبلدة شجاعتهم، وكان أول من تخلى عن الاستمرار في تلك الخطة بدو «بني خالد»، إذ ضجروا وسأموا من الجلوس الذي حرم جمالهم من مراعيها الطبيعية، كما أن جماعة «الزلفي» قررت أيضاً الرحيل إلى ديرتها تاركين «حرمة» وحيدة في القتال ضد جارتها.

كان «عبد العزيز» قد أرسل أخاه «عبد الله» لإنقاذها، وبعد فترة قصيرة انضم إليه «سعود» على رأس قوة كبيرة لمحاصرة «حرمة»، ودارت رحى

الحرب ضد المعتدين الذين تعرضوا للهجوم المتواصل بشكل يومي إلى أن أجبروا على التراجع إلى قلعتهم وتمت محاصرتهم. وعندما نشدوا السلام أمر «سعود» بإقصاء وإبعاد كل من أثبت أنه شارك في زعزعة الأمن، وأصر أيضاً على نقل كل محاصيل واحات النخيل إلى خزانة الدرعية. كما أمر عبد العزيز ابنه سعوداً بهدم أسوار حرمه وتدمير تحصيناتها للقضاء على محاولات زعزعة الأمن في المستقبل.

ومباشرة بعد هذه الفترة، شن السعوديون حملتين لمعاقبة وتأديب «الزلفي» على الدور الذي قامت به في تلك الأحداث. قاد الحملة الأولى الأمير «سعود» وقاد الحملة الثانية الأمير «عبد الله بن محمد»، وفي كلتا الحملتين حدثت اشتباكات لم تسفر عن نتائج قيمة. وفي طريق عودته إلى الدرعية وبالتحديد في منطقة «رغبة»، سمح «عبدالله» لقواته من «سدير» و «الوشم» أن يذهبوا إلى منازلهم للراحة. وعندما وصلت باقي القوات إلى ابار «حفر العتش» هاجمها «سعدون بن عريعر» على رأس قوة كبيرة من «بني خالد» وأنزل بالقوات السعودية المنهكة خسائر كبيرة وإصابات في الأفراد، وجرح في تلك الاشتباكات قائدي فصيلي «الوشم وسدير» اللذان لم يذهبا في إجازة، بل بقيا مع «عبد الله» لزيارة الإمام «محمد بن عبد الوهاب». ويبدو أن «عبد الله» كان من بين القلائل الذين تمكنوا من الهرب، واستمر «سعدون» في طريقه لغزو جزء من مناطق «سبيع» إلا أنه وجد أن فصيلاً من «ضرما» كان مخيماً في نفس مشارب المياه، ودارت معركة مُنيت فيها قوات «سعدون» بالهزيمة ووقع أحد شيوخ الأمير «سعدون بن خالد» في أيدي رجال «ضرما» الذين لم يطلقوا سراحه إلا بفدية بلغت

٣٠٠٠ قطعة ذهبية .

وبعدها شنت قبائل السبيع غارة على جماعة «الظفير» التي كانت معسكرة في منطقة «صفوان» على الحدود العراقية، واستولوا على ٤٠٠٠ من جمالهم، وسارت فصائل من الدرعية مرة ثانية لغزو «الخرج» وتوغلوا فيها إلى أن وصلوا إلى «الحوطة» وقاموا بجولة من المناوشات الغير مجدية . وفي تلك الأثناء كانت فصائل من القوات السعودية تهاجم مناطق الزلفي، التي خضع أهلها أخيراً للحكم السعودي الذي على ما يبدو أصبح مستقراً وراسخاً امتداداً من القصيم في الشمال حتى الخرج في الجنوب، ومن الدهناء شرقاً إلى عتيبة وحرب غرباً . ولم تكن تلك المناطق خاضعة كلياً إلى أشراف مكة بل كانت القبائل تحكم نفسها بنفسها .

كان تأرجح بعض الوحدات السعودية بين التمسك بالمبادئ الجديدة والارتداد عنها على مدى تلك السنوات تجسيداً للروح السائدة في ذلك العصر سواءً ذلك في المناطق المستقرة أو في مناطق البدو . فكانت طبيعة العربي الكارهة والنافرة لأي نمط من أنماط الانضباط تواجه وبشكل مضطرد تحد من قبل الحركة الدينية الوهابية التي ارتكزت على مبادئ يخضع فيها الفرد وحقوقه خضوعاً كاملاً لمصلحة السلطة . فقبل الناس هذه المبادئ على نطاق واسع إلا أنهم كانوا يخلون بها أكثر مما كانوا يمارسونها أو يتعقدون بها .

لم يكن لأي شخص أن يدرك هذه الحقيقة أكثر مما أدركها «محمد بن عبدالوهاب»؛ ومنذ بدء دعوته أدرك الحاجة إلى قوة فعالة تستطيع أن تجعل كلمة الله سائدة ومسيطرة على عادات مجتمع شبه وثني في تلك الصحراء العربية . ويمكن الضعف الرئيسي في الحركة الوهابية في حقيقة أن البدو

الذين كانوا دائماً على استعداد للمشاركة في الغزوات التي تحقق عائدات جيدة من الغنائم، لم يدركوا معنى الجانب الروحي لهذه الحركة، في حين كانت المنافسات المحلية في القرى والبلدان العامل الحاسم في موضوع الاختيار بين الالتزام بالمبادئ الجديدة أو رفضها وعدم الالتزام بها. لا يمكن للمرء في خضم التطورات السياسية لتلك الفترة أن يستشعر أخوة الرجل الصالح التي أصبحت فيما بعد المرتكز الأساسي لحركة الإخوان التي شهدها القرن العشرين.

كان عام ١٧٨١ عام قلق وعدم استقرار امتدت من إقليم فرعي في الجنوب إلى مضارب القبائل على الحدود العراقية. ومرة ثانية أصبحت «الخرج» الهاجس الرئيسي لحاكم الدرعية، التي توسعت في الغزوات حتى وصلت إلى مناطق «الحوطة» و «الحريق». وبعد أن انتهى من الهجوم على «الدلم» التف «سعود» إلى جهة الشرق وهناك بنى قلعة «البدع» بالقرب من «السلمية» ووضع بداخلها حامية من الجند تحت إمرة «محمد بن غشيان»، لمراقبة نشاطات زعيم اليمامة «حسن بن راشد» في منطقة «البجادي». وعلى أي حال مات هذا الزعيم في ذلك العام، كما قتل أخوه في المناوشات التي دارت حول البلدة.

ناشد أهالي الدلم «سعدون بن عريعر» لمساعدتهم في القضاء على هذا الموقع الخطر المتقدم للقوة السعودية، لكن القوة السعودية تمكنت وبسهولة من صد موقع «البدع». «سعدون» يبحث عن مراع جديدة في مناطق الشمال، وبعد أن قام «عبد العزيز» شخصياً بغزو «الحوطة» وجني ثمار الاشتباكات المتقطعة، التفت مجدداً إلى «الدلم» ليكيل لها بنفس المكيال من الضربات والهزائم.

تحول مركز الجذب الآن إلى الشمال حيث هاجم «سعدون» وحلفاؤه من جماعة عنزة (مجموعة حبلان) «الدهامشة» الذين كان يتزعمهم «مجلد بن فواز» وتمكنوا من دحرهم. خرجت في تلك الأثناء قبيلة «الظفير» بكل قوتها تحارب مختلف تجمعات القبائل التي ضربت خيامها في منطقة «مليدة» المجاورة، وانطلق «سعود» من موقعه لمواجهتهم لكن عظم تعداد قواتهم جعل «سعود» يحجم عن مداهمتهم بشكل مباشر، وتراجع إلى منطقة «تمير» بانتظار وصول التعزيزات التي طلبها. وبعد وصول التعزيزات تقدم بقواته نحو «الظفير» وألحق بذلك التجمع هزيمة نكراء، واستولى على كل محتويات معسكرهم وعلى أعداد كبيرة من ماشيتهم التي كان من بينها ١٧٠٠٠ رأس غنم وخمسة آلاف جمل وخمسة عشر فرساً.

كان قدر الانتفاضة في منطقة «القصيم» يغلي على نار هادئة، ومع بداية عام ١٧٨٢ كان أهالي تلك المنطقة مستعدين لانتفاضة جماعية ضد زعماء الدرعية في عقر ديارهم، وهناك لقي عدد من الشخصيات البارزة من القادة القادة السعوديين في المنطقة مصرعهم، ومن بينهم «منصور» و«ثنيان» من عائلة «أبا الخيل». طلب الثائرون من «سعدون بن عريعر» المساعدة، فما كان منه إلا أن قدم على رأس قوة كبيرة تضم إلى جانب قوته الرئيسية من قبيلة «بني خالد» أعداداً كبيرة من «الظفير» و «شمير». وقف «سعدون» بقواته على مشارف «بريدة» وبدا أن كل أهالي «القصيم» كانوا مؤيدين للثائرين باستثناء «بريدة» و«الرس» و«تنومة». وبالطبع كانت «بريدة» الينبوع الرئيسي لكل المخلصين للدولة السعودية. وكان أميرها «حجيلان بن حمد العليان» الذي كان قد خلف «عبد الله بن حسن» بعد موته في أحد العمليات

ضد منطقة «الخرج». وخلال الحصار الذي أسفر عنه ذلك الموقف والذي دام لمدة أربعة أشهر، اتهم فرد من عائلة «العليان» بالتواطؤ مع العدو، وقام «حجيلان» شخصياً بذبحه.

حظي هذا التصرف برضا الأهالي، وأدرك «سعدون» أن الحصار يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، لذلك تخلى عن ذلك الموقف وسار بقواته عن طريق «الزلفي» باتجاه «مبايض» وعسكر هناك ليعيد ترتيب قواته، وانضمت إليه تعزيزات قوية من عدة اتجاهات، إذ سارع زعماء «سدير» المنفيين من «الزبير» ومناطق أخرى بالانضمام إليه، وشكلت فرقة «الخرج» التي تزعمها «زيد بن زامل» مصدر قوته الرئيسية. وعند حلول منتصف شهر تشرين الثاني كان جيش «سعدون» مستعداً للمعارك، وتقرر أن تقوم تلك القوات بأول هجوم لها ضد بلدة «الروضة» التي كان زعماؤها المنفيون ضمن قوات «سعدون». فتوجه هؤلاء الزعماء تدعمهم فرقة قوية من الجيش إلى «الروضة» وتمكنوا تحت جنح الظلام من احتلالها بسهولة، ووافقت حامية سعودية (كانت متمركزة في القلعة الكبيرة) في صباح اليوم على الاستسلام والرحيل مقابل ضمانات بعدم التحرش بها أثناء الانسحاب.

قرر «سعدون» أن يقيم مقر قيادته في «الروضة» خلال فترة كانت الحاجة فيها ماسة لاستقرار الأوضاع في ظل حكم «آل الماضي» الذي تمت استعادته. تركهم «سعدون» يدبرون أنفسهم ورحل عنهم، في حين انسحبت الفصائل الأخرى كل إلى ديرته.

كان «سعود بن عبد العزيز» في تلك الأثناء معسكراً في «ثادق» يراقب التطورات: وما أن غادر «سعدون» الروضة إلا أن أرسل «سعود» عناصر من

قواته لتهاجمها: فأوكلت العمليات الأولية إلى فرق قروية من «سدير» نفسها ومنها رجال أشداء من «العارض» و «الوشم» وفي تلك العمليات قتل الأمير «عون بن مانع» وخلفه أخوه «عثيل»، واستؤنف القتال بنفس الأسلوب المتقطع إلى أن قام «سعود» على رأس قوة أساسية من جيشه بممارسة المزيد من الضغط على المدافعين، وتمكن من احتلال واحات النخيل والحاق خسائر بها، ومع تتالي الأحداث بقيت قلعة واحدة تحت سيطرة «عقيل». وتحت هذه الظروف وجد «عقيل» نفسه مضطراً لمناشدة السلام الذي تمت الموافقة عليه لكن وفق شروط قاسية وهي: طلب منه دفع مبلغ كبير من المال كتعويض وعفو عن الجرائم، كما تم نفي وإبعاد عائلة «الماضي» وأتباعها عن المنطقة. وبعد احتلاله «الروضة» شرع «سعود» في تقصي أحوال القرى المجاورة التي شك بأنها كانت تقدم العون للثائرين من عائلة «الماضي» بما فيها قريتي «الداخلة» و«الفرعة». عاد «سعود» إلى ديرته ليعد العدة لنشاطات العام القادم. أوصلته تلك المشاركات بعيداً عن ديرته فوصل «المستجدة» وهناك أغار على جماعة من «مطير».

وفي حوالي نفس الفترة من ربيع عام ١٧٨٣ سار «يزيد بن زامل» ليغزو جماعة من «سبيع» في مكان ما من الصحراء، وفي طريق عودته جابهته دورية كانت بقيادة «سليمان بن عفيصان» وكان «عبد العزيز» قد أرسلها من «الدرعية» لتحمي طريق القوافل. وحدثت مناوشات بين الطرفين وأصاب عيار ناري طائش «زيد» فقتله على الفور. أفجعت هذه الحادثة كل أتباعه الذين خسروا عشرة رجال في تلك الواقعة، استردت تلك الدورية الجمال

التي كانت جماعة «زيد» قد أخذتها من قبيلة «سبيع» وأعادوا إلى أصحابها. أصبح «ابن زيد» المدعو «براك» أميراً على «الدلم» وسرعان ما رتب أموره مع أهل اليمامة لمهاجمة منفوحة، نجم عن تلك الترتيبات المناوشات المعتادة التي لم تسفر عن إصابات بالغة في أي من رجال الجانبين. غزا «سعود» في تلك الفترة الأحساء، وفي طريق عودته إلى ديرته بعد أن حقق غزواً ناجحاً ضد «العيون»، قرر أن يقوم بهجوم على اليمامة، وفي الواقع ومن حسن حظه أنه وجد عدداً كبيراً من أهالي اليمامة مخيمون بالصحراء، وعلى الفور قام بهجوم لم تصمد أمامه أهالي اليمامة وهربوا في حالة فوضى. لم يخسر «سعود» في تلك المواجهة أكثر من ثمانية رجال. توجه «سعود» بعد ذلك إلى «القصيم» ليقوم بمناوشات حول «عنيزة»، لكنه سرعان ما عاد إلى ديرته لأنه لم يفضل أن تمكث قواته الكبيرة العدد بشكل مكشوف في العراء. وبسبب عدم هطول الأمطار في نهاية عام ١٧٨٣ أوشكت كافة مناطق «نجد» أن تموت بسبب الجفاف الشديد. قدر لذلك الجفاف أن يستمر وبشكل قاس حتى عام ١٧٨٦، ورافق ذلك ندرة في الطعام وارتفاع في الأسعار وكثير من الأمراض.

ومع نهاية عام ١٧٨٤ أو بداية العام التالي قاد «سعود» حملة ضد مناطق «الخرج». وعندما وصلته أخبار قافلة غنية محملة بالمواد الغذائية وكانت متوجهة إلى «الحوطة»، أصدر أوامره بأن يعد لها كمين في موارد المياه بمنطقة «الثليمة» الواقعة في الصحراء على مسافة اثني عشر ميلاً من «اليمامة». نفدت مياه القافلة التي كان يحرسها حوالي ٣٠٠ محارب، وما أن شاهدوا

أشجار النخيل في الواحات الصغيرة حتى تدافع حراسها في المقدمة وأسرعوا نحو الواحات على الفور قضى رجال «سعود» على هؤلاء الرجال، لكن القافلة توقفت عند سماع الطلقات النارية واستعد حراسها للدفاع عنها. على أي حال كانت القافلة فريسة سهلة بالرغم من الدفاع المستميت الذي قام به حراس القافلة، إذ سقط منهم حوالي النصف بما فيهم «زامل» وهو أحد أبناء «زيد» الذائع الصيت. فر الناجون من الموت تاركين القافلة والبضائع الثمينة إلى الأعداء. وكأن هذه الحادثة لم تكن مأساوية بشكل مؤثر على أهالي «الخرج» الذين كانوا يعيشون حالة قحط ومجاعة، إذ تعكر صفو الأمن في «الدلم» بسبب اغتيال الأمير الجديد «براك» على أيدي اثنين من أبناء عمومته. التجأ هذان الاثنان إلى «الدرعية»، وعليه خلفه «تركي» في الإمارة وهو ابن آخر من أبناء «زيد»، لكنه لم يحتفظ بالإمارة لوقت طويل لأن «سعود» هاجم «الدلم» في نهاية شهر تشرين أول من عام ١٧٨٥، وبعد معارك ضارية تمكن من دحر المدافعين وإجبارهم على التراجع ضمن حدود البلدة. وأخيراً استولى عليها بهجوم عاصف. تمكن «سعود» من قتل «تركي» وعَيّن في مكانه «سليمان بن عفيصان» أميراً على المنطقة، وبهذا الشكل تم إخضاع واحداً من المعاقل الرئيسية المعارضة للحركة الوهابية. وسارعت بقية بلدان ذلك الإقليم إلى الإعلان عن ولائها للعقيدة الوهابية الجديدة. لكن سبق تلك التطورات أن قدم قادة «وادي الدواسر» إلى «الدرعية» ليعربوا عن اعترافهم بالسلطة السعودية الجديدة. وعليه يمكن القول إن ذلك العام شهد توسعاً حقيقياً امتد جنوب الدولة السعودية.

سبب الجفاف انتشار مرض الجرب بين الجمال في «نجد» على نحو خطر، كما سبب إصابات في مناطق البدو وفي القرى والمدن. كانت الحيوانات المستخدمة في القوافل عند بدء رحلتها تبدو في حالة جيدة لكنها كانت تسقط فجأة وتموت تحت نير حمولتها. جاءت الأمطار الموسمية في عام ١٧٨٥/ ١٧٨٦ وعند بوادر ثمار تلك الأمطار وظهور المحاصيل في الربيع، نزلت الأسعار بشكل سريع وازدهرت الصحراء مرة ثانية، لكن لم تخفف تلك الحالة من صراع القبائل الدائم، إذ تآمر فريقان من جماعة «بني خالد» مع اثنين من الأسرة الحاكمة للقبيلة وهما «عبد المحسن بن سرداح العبيد الله» و «دويحس بن عريعر» بقصد الثورة ضد حكم «سعدون». استجاب «ثويني بن عبد الله» زعيم «المنتفق» لمناشدتهم وقدم المساعدة لهم. وهكذا واجهت القوات المتحالفة «سعدون» بقوة ضاربة ودام القتال الضاري لعدة أيام بعدها أدرك «سعدون» أن هزيمته واقعة لا محالة، ولذلك فر مع أتباعه إلى «الدرعية» وهناك أحسن «عبد العزيز» استقباله وعامله بعز يليق بعدو شجاع. اغتصب «دويحس» مكان «سعدون» في قبيلة «بني خالد»، وباشر «عبد المحسن» اليد اليمنى لـ «دويحس» بإدارة بعض الأعمال الخاصة بسيادة القبيلة.

كان «سعود» منشغلاً بالإشراف على حملة توجه بها لغزو جماعة من «قحطان» في الجنوب، وكان «حجيلان بن حمد» أمير منطقة القصيم ينظم حملة أخرى لغزو «جبل شمر»، ويفترض أن «عبد العزيز» كان قد وافق على ذلك، والجدير بالذكر هنا أنه لم يسبق لـ «عبد العزيز» أن قام بأي تحرك في ذلك الاتجاه.

قام «حجيلان» بالاستيلاء على قافلة كبيرة محملة بالأقمشة والبضائع كانت قادمة من العراق في طريقها إلى «حائل»، وسارع بالعودة إلى ديرته محملاً بالغنائم قبل أن تُنظم أية جهة حملة لمطاردته. لكن الانتقام كان قادماً على الطريق، ففي شهر تشرين الأول من العام التالي قاد زعيم المنتفق والمدعو «ثويني» قوة عسكرية قوية وسار بها باتجاه «القصيم؛ وكانت تلك القوة مجهزة بحمولة ٧٠٠ جمل من المواد الحربية مثل: المسدسات والبنادق التي تشعل بالفتيل، والذخائر والطلقات الضرورية لكافة الأسلحة. ولدى وصوله إلى «تنومة» سارع في حصارها لبضعة أيام، وأضعف وسائل وامكانيات الدفاع عنها بقصفها بالمدفعية إلى أن تيقن من نتيجة الإغارة عليها وتحقيق النصر. وعليه داهم القرية بهجوم عاصف وأحدث فيها أعمال ذبح عشوائية وسلب كل ممتلكاتها، وقتل من أهلها ما لا يقل عن ١٧٠ رجلاً ولم يهرب إلا القليل بعد ذلك توجه «ثويني» إلى «بريدة» التي لم يقدم على نهبها لأنه تلقى أخباراً تفيد بحدوث مشكلات في ديرته. حملته تلك الأخبار على العودة بشكل فوري. وفي تلك الأثناء كان «عبد المحسن» الوصي على إمارة الأحساء في طريقه على رأس قوة كبيرة ليساعد «ثويني» في معاركه بمنطقة القصيم، لكنه هو أيضاً تخلى عن تلك المهمة لدى سماعه أن «ثويني» كان قد انسحب.

وصل «ثويني» إلى «الزبير» وهناك تقدم حاكم البصرة لزيارته، لكن ما إن وصل الحاكم حتى أطبق «ثويني» عليه واستولى على كل ماشيته بعدها توجه إلى البصرة بنفسه واحتل المباني الحكومية فيها وتقلد دور الحاكم في المدينة. جمع «ثويني» وجهاء البصرة لمشاورتهم بخصوص المستقبل، وتم الاتفاق

على إرسال رسالة إلى السلطان في القسطنطينية (استانبول) يطلبون فيها موافقته على تعيين «ثويني» والياً على إقليم البصرة. وقد أصيب المندوب بالذعر بسبب تصرف وزراء السلطان غير الملائم، فهرب تحت جنح الليل. ومن المحتمل أنه تم إرسال تعليمات رسمية إلى والي بغداد «سليمان باشا» لاتخاذ كل الخطوات اللازمة لإعادة الوضع في البصرة على حاله. وعليه أشرف «سليمان باشا» بنفسه على قيادة الحملة التأديبية التي توجهت إلى البصرة في خريف عام ١٧٨٧. كان «ثويني» في تلك الفترة يجمع قواته لمقاومة الغزو العثماني. ترك أخاه «حبيب» يتولى شؤون البصرة وتوجه إلى قناة الفضيلية بالقرب من سوق «الشيوخ» لملاقاة العثمانيين، وهناك منيت قواته بهزيمة نكراء، إلا أنه تمكن من الفرار إلى «الجهرة» بالقرب من الكويت ومن هناك انضم إلى قبيلة «بني خالد» في «الصمان».

أصبح «حمود بن ثامر» الآن زعيماً لجماعة المنتفق، وأصبح «الآغا مصطفى» حاكماً على البصرة. كرر «حجيلان» غاراته على «جبل شمر»، وكانت تلك الغارات عنيفة لدرجة أن أهالي حائل أعلنوا خضوعهم للحكم السعودي الذي اكتسب بهذا الإقرار توسعاً آخر شمل حكمه المناطق التي يديرها.

توجه «سعود» إلى منطقة القصيم للتعامل مع عنيزة التي كانت تشهد بعض المشكلات نظراً لأن زعيمها كان من أفراد عشيرة «الراشد»، وكان «يحيى بن علي» قد خلف «عبد الله بن أحمد» من عائلة الزامل، والذي كان عام ١٧٦٨ قد عُين أميراً لكنه قتل في العام نفسه خلال الحملات التي شارك فيها في منطقة الخرج. والجدير بالذكر أن «يحيى بن علي» وهو ابن أخت «عبد الله بن حمد». كان قد تمكن من البقاء في الإمارة حتى عام ١٧٨٨

بمساعدة أحد مغتصبي السلطة من عائلة «الراشد» قام «سعود» في ذلك العام بحملة ضد تلك المنطقة. وعلى إثر الانتصار الذي حققته تلك الحملة تم إقصاء المغتصب للزعامة مع أسرته عن الحكم، ونفي من المنطقة وردت الإمارة إلى عائلة «الزامل» المتمثلة في شخصية أحد أبناء «يحيى» المدعو «عبد الله». وتم هذا التغيير وأصبح ساري المفعول دون أية معارضة للقرار الذي اتخذه «سعود» بذلك الخصوص.

تزامن ذلك مع غزوة قام بها «سليمان بن عفيصان» للمناطق الشرقية، إذ أنزل بأهالي «قطر» خسائر جسيمة. وبعد أن انتهى من ذلك التفت إلى مناطق الأحساء وهناك عزل قرية «الجشة» وتعامل معها بشكل جذري وقتل العديد من أهلها بحد السيف. سار بعد ذلك بقواته نحو ميناء «العقير» الذي أضرم فيه النار بعد أن نهب منه كل البضائع والسلع الموجودة في المستودعات.

من أبرز أحداث هذا العام كان قرار «عبد العزيز» الذي بلغ من العمر في هذه المرحلة ٦٥ عاماً، تقرر أن يتخذ ترتيبات محددة يؤكد من خلالها ضوابط تولي السلطة من بعده. إن المكانة العسكرية والإنجازات البارزة في المجالات الإدارية، جعلت من «سعود» الشخصية المرجحة لأن تحكم مستقبلاً الدولة التي كبرت وتعاظمت من حيث المناطق المحيطة بالدرعية، لكن من المشوق أن نشير هنا إلى أن «محمد بن عبد الوهاب» وبصفته ممثل السلطة الدينية وبموجب منزلته كإمام، أصدر أوامره لكافة المناطق والمحافظات بالاعتراف بـ «سعود» كحاكم عليها في المستقبل. لم تقم لهذه المناسبة أية احتفالات رسمية خاصة، إلا أن أداء البيعة من قبل الأهالي في حضرة أمرائهم وحضرة سلطات أخرى مخولة بإدارة أمورهم، ألزمت

الجميع ومنذ تلك اللحظة بأن يقدموا جلّ خدماتهم وبإخلاص للأمير «سعود» وذلك ليس فقط بصفته إماماً عليهم بل بصفته وريثاً للحكم بشكل فعلي عليهم، وله الحق في احترامهم له وطاعته بنفس القدر الذي كانوا يحترمون ويطيعون فيه والده. ولا بد أن يكون هذا الإجراء موغل في القدم، إذ كان يمارسه ملوك سبأ حين يشركون واحداً وفي بعض الأحيان اثنان من إخوانهم وأخواتهم في الحكم معهم، وذلك ليس فقط بصفتهم أمراء ورثة للحكم، بل كانوا يطلقون عليهم اسم ملوك أيضاً.

أما في منطقة الحكم السعودي فكان يشار للحاكم إلى جانب كونه إمام المسلمين بلقب «الشيوخ» (في صيغة الجمع)، في حين كان الشخص الآخر المخول الحق بهذا اللقب هو الأمير الوصي على العرش أو الأمير المعترف به كوريث للعرش. ومن أحد المحاسن في هذا الترتيب التقليدي هو أن النظام يتحاشى أو يتفادى أية حاجة لإجراءات غير مسوغة للتنازل عن الحكم من قبل ملك حاكم، كما يؤكد استمرارية السلطة السيادية في الدولة في حال عجز الحاكم عن الاستمرار في الحكم أو أنه مات.

ومباشرة بعد توليه منصب ولي العهد أمضى «سعود» بقضاء شتاء عام ١٧٨٨/ ١٧٨٩ في سلسلة من الغارات والغزوات التي تمت جميعها في المناطق الشرقية والمناطق الشمالية الشرقية. كانت كل حملاته مركزة وبشكل عام على ممارسة المزيد من الضغوط على أمراء «بني خالد» في الأحساء. ففي منطقة «الصمان» واجه «سعود» كامل زخم قوات «بني خالد» لكنه انسحب دون أن يبدي أية محاولة جادة في الاشتباك معهم، وجاء ذلك الانسحاب بعد يومين من استعراض القوى والمناوشات الخفيفة. واشتبك

بعد ذلك بجماعة «ثويني» في نفس المنطقة، وكان معهم اللاجئون من جماعة «المنتفق» الذين هربوا معه من العراق بعد كارثة «سوق الشيوخ»، لكن «سعود» هذه المرة هاجمهم وأجبر جماعة «المنتفق» على الفرار واستولى على معسكرهم وكل الأمتعة والمعدات التي بداخله. وبعد ذلك هاجم مجموعة من القرى الصغيرة في صحراء «الطاف» واستولى على كل مخزونهم من الحبوب. تابع المسير لمسافات بعيدة حملته على مهاجمة مجموعة أخرى من «المنتفق» كانت في منطقة «الروضتين» بالقرب من «صفوان» على الحدود العراقية، وسلب كل ما احتواه معسكرهم وكل ما احتوته خيامهم، إضافة إلى ممتلكاتهم. رجع «سعود» قافلا إلى مشارب «الوفرة» وهناك واجه فريقاً من قبيلة «بني خالد» وألحق به هزيمة وقتل منهم حوالي ٩٠ رجلاً. وعاود بعد ذلك المسير باتجاه واحة «الأحساء» وهناك قام ببعض المناوشات حول بلدة «المبرز» دون تحقيق أهداف جوهرية، لكنه هاجم قرية «الفضول» التي تقع بالجوار من تلك المنطقة واحتلها وقتل من أهلها حوالي ٣٠٠ رجلاً.

وفي الخريف التالي عاود حملاته وضغوطه على الأحساء، وكان جيشه هذه المرة إضافة إلى قواته النظامية من «العارض» ومن المناطق المجاورة للدرعية، يضم فرقة من قبيلة الظفير وعناصر من قبيلة «بني خالد» بزعامة «زيد بن عريعر» الذي كان قد أبعد عن القبيلة مع أتباعه إثر ثورتهم ضد «سعدون». توجه «سعود» بهذه القوة مستهدفاً القوة الرئيسية لقبيلة «بني خالد» التي كانت تعسكر بالقرب من تل ومورد ماء «غريمل» الذي لا يبعد كثيراً عن الواحة الرئيسية في الأحساء. كان معسكرهم تحت إمرة «دويحس ابن عريعر» وإمرة خاله «عبد المحسن» الوصي على الحكم، فداهمهم

«سعود» على الفور. قاتل الفريقان بشكل مستميت إلى أن توصل «بنو خالد» إلى مرحلة لم يستطيعوا الاستمرار فيها فتفرقوا وانهزموا، وأثناء الفرار تمكنت خيالة «سعود» من قتل العديد منهم تاركين وراءهم ماشيتهم وكل ممتلكاتهم. ويقال بأن «عبد المحسن» و «دويحس» فرا إلى «المنتفق» لذا قرر «سعود» أن يعين «زيد بن عريعر» رئيساً للقبيلة.

وفي خريف عام ١٧٩٠ ظهر خطر حقيقي هدد بشكل جدي استقرار الحكم السعودي. قدم ذلك الخطر من الغرب حيث كان الشريف «غالب بن مسعود» الذي خلف أخاه «سرور» في إمارة مكة بعد وفاته وفي عام ١٧٨٨، يخطط لغزو «نجد». أعلن «غالب» بوضوح أن هدفه كان إسقاط الدرعية نفسها ووضع نهاية للحركة الاصلاحية. فأرسل أخاه «عبد العزيز» على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف رجل معهم عشرين مدفعاً. انضم إليه وهو في طريقة إلى هناك بدو الحجاز ورجال من «شمر» و «مطير» وعناصر أخرى من قبائل «نجد». وعند وصول هذه الحشود إلى مقاطعة «السر» قامت المدفعية التركية (العثمانية) بتطويق ودك منطقة «قصر بسام» – وهي قرية صغيرة محصنة– ، إلا أن الحامية الصغيرة التي قيل بأن عدد رجالها بلغ ثلاثين رجلاً، صمدت ببسالة ضد كل أشكال الهجوم التي فرضت عليها. وبعد بضعة أيام من القصف قر ر «غالب» الذي كان يدير العمليات بنفسه، أن يلتحق بالقوة الرئيسية التي كانت تحت إمرة أخيه في «شقراء» التي كانت في أعالي «نجد»، وقد تعرضت تلك البلدة الهامة إلى قصف عنيف، كما تمت عدة محاولات للاستيلاء عليها بهجوم عاصف، إلا أن جميع هذه المحاولات التي استهدفت الاستيلاء عليها أو إجبارها على

الاستسلام باءت بالفشل. وبعد مضي شهر من المحاولات غير المثمرة رفع «غالب» الحصار الذي كلفه حوالي خمسين رجلاً من رجاله، وأقلع عن أية فكرة أخرى تتعلق بالسيطرة على «نجد». وبعد أن أدرك البدو فشل محاولته انشقت قبائلهم عن قوات «غالب» التي كانت قد انضمت إليها على أمل الحصول على غنائم سهلة، وترك «غالب» يقود المجموعة الرئيسية من قواته وهي في طريق عودتها إلى مكة دون تحقيق أية مكاسب.

قام «سعود» على رأس قوة كبيرة بالهجوم على البدو الذين تحالفوا مع الشريف «غالب». والجدير بالذكر أن «سعود» - على ما يبدو - كان يحتفظ بالقسم الأكبر من قواته في حالة احتياط تحسباً لأي طوارئ أو تهديد مباشر يمكن أن يحدث ضد الدرعية. وسرعان ما سمعوا بأخبار الحملة. انسحب البدو من «نجد» وكان الوقت آنذاك قد دخل في صيف عام ١٧٩١ حيث وصلت جماعات «شمر» و «مطير» إلى موارد مياه «العدوة» إلى الجنوب من «حائل». وفي الثلاثين من شهر آب (اغسطس) دارت معركة «العدوة»، وهناك التف «سعود» عليهم، وقاتل البدو بإصرار وعناد إلا أنهم مُنيوا بالهزيمة وأجبروا على الفرار تاركين وراءهم غنائم ثمينة استولى عليها رجال «سعود». خسرت تلك الجماعات أيضاً عدداً من قادتهم، لكن بعد ذلك بوقت قصير - وبعد أن جمعوا تعزيزات جديدة من الرجال الذين لم يشاركوا في تلك المعركة - عادوا لمهاجمة قوات «سعود» الذي كان لا يزال موجوداً في «عدوة» يوزع غنائم الحرب حسب العادة.

جابه السعوديون تحدي رجال القبائل، وقتل واحد من زعماء «شمر» وهو يحاول الانقضاض على «سعود» في خيمته الخاصة. تفرق المهاجمون

ولاذوا بالفرار وطاردتهم فرسان السعوديين واستمروا في مطارتهم لمدة ملحقين بهم خسائر بشرية ومادية كبيرة.

وفي شهر كانون ثاني (يناير) من عام ١٧٩٢ عاد «سعود» مرة ثانية إلى درب الحرب فتوجه إلى إقليم الأحساء، وهناك استولى بهجوم عاصف على «سيهات» و «العنق»، وقتل حوالي ٤٠٠ من أهل البلدتين، واستولى على كميات كبيرة من الغنائم. وأخيراً وافقوا على عقد صلح وسلام لقاء دفع فدية بلغت ٥٠٠ جمل. في تلك الفترة تمكن «زيد بن عريعر» الذي كان قد عينه زعيماً على قبيلة «بني خالد» بعد معركة «غريمل» من التغرير بـ «عبدالمحسن» وحمله على العودة بعد أن قدم له ضمانات وتعهدات بأن يعامل بكرم، لكنه ذبحه بكل برودة أعصاب في الهواء الطلق أمام حشد من الناس.

وبناءً على أوامر تلقاها من الإمام، قام زعيم قبيلة قحطان «هادي بن قرملة» بمهاجمة جماعة «مطير» المتجمعة بالقرب من آبار «جنية» في أهالي نجد، وتوجه «سليمان بن عفيصان» لغزو «قطر» وفي طريقه إلى هناك اشتبك مع مجموعة مسلحة من القطريين ودحرهم في موقعة دارت في الصحراء. بعد النشاطات التي قام بها في منطقة «القطيف» توجه «سعود» بنفسه إلى «جبل شمر» وغزا تجمعاً كبيراً لرجال قبائل «حرب» و «مطير» حول موارد مياه «شقراء»، واستولى على غنائم كبيرة شملت ٨٠٠٠ جمل وعدد من الخيول الأصلية.

وقع أبرز أحداث ذلك العام خلال فصل الصيف، حيث انتقل «محمد بن عبد الوهاب» في العشرين من تموز (يوليو) إلى جوار ربه (رحمه الله)، مات بعد حوالي نصف قرن من التفاني في خدمة الحركة الوهابية التي أسس

أول ركائزها، وفي خدمة الأمراء الذين تعاونوا معه من أجل دفعها وتقدمها إلى مستوى أدخل إلى قلبه الرضى التام في أواخر عمره. لكن لم يكن مقدراً له أن يعيش ليشهد أرض الميعاد في تبرعمها وامتداد أطرافها إلى أقصى حدود الصحراء العربية. وفي سياق الإشارة إلى حادثة وفاته، يخبرنا «ابن بشر» أن «محمد ابن عبد الوهاب» عاش اثنين وتسعين عاماً، إلا أنه في وثائق تاريخية أخرى عن حياة «محمد بن عبد الوهاب» يشير إلى أن تاريخ ميلاده كان في عام ١١١٥هـ (السابع عشر من شهر آيار من عام ١٧٠٣ وإلى الخامس من آيار من عام ١٧٠٤م). وبالرغم من هذه المعطيات يمكن القول أنه بلغ من العمر عند وفاته ٩٣ سنة.

بدت على «محمد بن عبد الوهاب» في آخر أيامه السمنة وثقل الحركة لضخامته، وكان لا بد أن يعتمد على رجلين يسندانه من كل طرف ليصل إلى المسجد، ويستشهد «ابن بشر» بعبارة ذكرها المؤرخ المشهور «حسين بن غنام» في مرثاة شعرية نظمت على شرفه: إلا أن أفضل صرح قائم في ذاكرته هو ذكرى الدولة التي أوجدها من خلال فوضى كانت سائدة في الصحراء العربية واستمرت إلى هذا اليوم بالرغم من كل تقلبات الظروف التي عانت منها الصحراء على مدى أكثر من قرنين.

ويشهد الجميع أنه علاوة على أن «محمد بن عبد الوهاب» ترأس مجلس التعاون بتميز، فقد قام أيضاً بنشاط قوي فعّال في إدارة الشؤون العسكرية والنشاطات السياسية المكرسة لخدمة دين الله. إن الانسجام التام الذي خيم على مدى خمسين عاماً تقريباً على النضال المتواصل بينه وبين أول زعيمين للدولة السعودية، لهو في الواقع أفضل مقياس لعبقريته الفذة ولإخلاصهما

الحقيقي للقضية المشتركة التي تتجاوز نقاط ضعف الجنس البشري وطموحاته التي سادت في عالم تكثر فيه الضغائن، إذ تمكنا من العيش والعمل مع بعضهما البعض.

شهد الخريف والشتاء اللذان عقبا موت الشيخ العظيم تطورات هامة في إقليم «الأحساء» حيث اتخذت جماعة «بني خالد» بتحريض من قبل «براك ابن عبد المحسن» موقفاً عدائياً من «زيد بن عريعر» وأطاحوا به. وما إن نُصب «براك» من قبل أتباعه زعيماً على القبيلة، حتى سارع في قيادة حملة شملت كل رجال القبيلة للغارة على مناطق آبار «لصافة». وفي الطريق إلى هناك هاجم جماعة من «سبيع» وسلب منهم الكثير من ممتلكاتهم. وفي غضون ذلك قدم «سعود» بكامل قوات المحاربين الوهابيين إلى الصحراء الشرقية للنيل من «بني خالد» الذين كانوا في ذلك الوقت في منطقة «الجهرة» بالقرب من الكويت. وبالقرب من «لصافة» تقفى «سعود» أثرهم الذي أوصله إلى موارد المياه. وهناك وجد أنهم كانوا قد غادروها للتو، فأقام معسكره هناك وتوقع عودتهم إلى موارد المياه نفسها أو إلى موارد مجاورة، وأرسل «سعود» قوات لتحتل آبار «اللهبة» (الهبة؟) و «كارة»، لكن جماعة «بني خالد» عادت إلى آبار «لصافة» ووجدوا أن «سعود» قد استولى عليها كما وجدوا أن فرسانة والمحاربين على الجمال كانوا على أهبة الاستعداد للقتال. دارت معركة هناك دامت لمدة ساعة تقريباً انهارت جماعة «بني خالد» وفر رجالها في حالة فوضى واضطراب، فطاردتهم فرسان «سعود» دون هوادة وعادوا ومعهم الكثير من الغنائم. قدرت الخسائر التي مني بها رجال «بني خالد» ما بين ألف إلى ألفي قتيل. هذا وغنمت قوات السعوديين

ما لا يقل عن ٢٠٠ فرس، إضافة إلى عدد آخر من الماشية.

تمكن «براك» على ظهر فهرسه مع جماعة صغيرة معه من الهرب وتوجهوا إلى «المنتفق» قرب الحدود العراقية. أصيب أهالي «الهفوف» بالذعر لدى سماعهم أخبار هزيمة «بني خالد».

كان «سعود» يسير في ذلك الاتجاه لكنه توقف عند آبار «الردينية» في إقليم طاف لبضعة أيام. تلقى خلالها مبادرات من مدن «الأحساء» أعربوا فيها عن رغبتهم في المثول بين يديه والإعراب له عن الطاعة والولاء. احتفلوا به لدى وصوله إلى «عين نجم» ينبوع المياه الساخنة، وهناك أرسل «سعود» فرقة لتهدم كل القبور ذات القباء والقبور والأماكن التي يرتادها الشيعة. أمضى «سعود» في تلك المنطقة شهراً من الزمان عمل خلاله على إقامة الركائز الأساسية للإحياء الفكري عند الناس الجهلة. وشمل ذلك الإصلاح بناء المساجد والمدارس وتعيين المدرسين الأكفاء لشرح المبادئ الأساسية في الإسلام وفي عقيدة التوحيد. عَيّن «سعود» أيضاً رجلاً يدعى «محمد الحاملي» في منصب أمير الإمارة باعتبار أنه كان شاغراً آنذاك وجعل المقر الرئيسي للإمارة في قلعة «كوت». وباعتبار أنه كانت حاجة لعدد من الرسميين، عَيّن «سعود» عدداً منهم في دوائر حكومية مختلفة، كما وضع حاميات عسكرية في القلاع وفي مراكز الحراسة الأخرى.

حل «سعود» خيام معسكره وسار بجنده نحو مشارب مياه «النطع» الموجودة في إقليم «طاف» وهناك نزل للاستراحة المؤقتة ولترعى جماله وخيوله في مراعيها الخضراء، وهناك أيضاً وصلته أخبار عن حدوث مشكلات جادة في منطقة «الهفوف»، وعلم أن الأهالي هناك ثاروا ضد

النظام الجديد وقتلوا حوالي ثلاثين شخصاً بما فيهم الحاكم وبعض الرسميين وكل المدرسين الذين تم تعيينهم مؤخراً لتدريس أصول الدين. ويُقال إن القتلة جَرّوا أجساد قتلاهم في الشوارع ومثلوا بهم على أعين الناس، ولم يبقى من الإدارة الحكومية التي عينها «سعود» سوى حامية في قلعة «حصار» كانت تحت إمرة «محمد بن غشيان» الذي - بعد أن صمد لفترة قصيرة - فر تحت جنح الظلام ليلتحق بقوات «سعود» في معسكره الحالي. قرر «سعود» على ضوء هذه الأخبار أن يعود - وفي الحال - إلى الدرعية، واستمر «زيد ابن عريعر» في حكمه المتقطع للأحساء على مدى تلك الفترة.

حدث أنه في حوالي نفس الفترة أصيب الحكم السعودي بكارثة وفاة «سليمان بن عفيصان» أمير منطقة «الخرج» الذي دامت فترة إمارته لمدة ست سنوات. وقبل وفاته كان «عبد العزيز» و «سعود» يعتمدان عليه في حملات عسكرية كانت تتطلب قيادة شجاعة.

أصبح «سعود» في خريف عام ١٧٩٣ مستعداً ولديه خطط للتعامل مع ثورة «الأحساء. سار «سعود» إليها ضاربة من جيشه، وكانت قرية «الشقيق» هدفه الأول إذ استولى عليها بهجوم صاعق بعد أن حاصرها لمدة يومين وقتل بعضاً من أهلها في حين فر البعض الآخر. اجتمع أهالي القرى المجاورة الواقعة في الجزء الشمالي من الواحة في منطقة تدعى «القرين» للدفاع عن أنفسهم، ولكن قوات «سعود» حاصرت تلك المنطقة تماماً كما حاصرت قرية «المطرفى»، ودام الحصار إلى أن اضطر أهالي كلتا المنطقتين إلى دفع نصف أملاكهم مقابل فك الحصار. عاد «سعود» بعدها إلى منطقة «المبرز» المجاورة، وهي المنطقة الثانية من حيث الأهمية بعد «الهفوف». قام «زيد بن

عريعر» بمهاجمة قوات «سعود» لكن السعوديين تمكنوا من دحر قواته ومن مطارتهم حتى العاصمة. هاجم سعود القلعة البعيدة عن مقر القيادة والتي كانت بها جماعة من «المبرز». أسفر ذلك الهجوم عن قتل مائة رجل من رجالها. هذا، وتعرضت قرية «البتالية» أيضاً إلى هجوم مماثل، توجه «سعود» على إثره شرقاً لمهاجمة بلدة «الجبيل». وفي الوقت نفسه وجه سعود رعايا ومن البادية بالقيام بأعمال حربية في بعض الاتجاهات الأخرى لانزال أكبر قدر من الخسائر في صفوف العدو. عقاباً لأعمالهم السابقة.

واستمرت حملة الذعر هذه لبضعة أيام، لكن أهالي «الأحساء» اختاروا «براك بن عبد المحسن» ليذهب إلى «عبد العزيز» ويطلب منه العفو، ويعرب له عن ولائهم وطاعته له في المستقبل. ووافق الإمام على مناشدتهم وطلب من ««عود» العودة إلى الدرعية تاركاً «براك» يرتب من أجل وضع اللمسات الأخيرة لهذه المعاهدة التي دخل فيها كطرف نيابة عن أهالي ذلك الإقليم. لكن أهالي الهفوف لم يتوبوا وتصدوا لمحاولة دخوله إلى ديرتهم. علماً بأن أهالي «المبرز» لم يعرضوا دخوله إلى بلدتهم، وفي تلك الأثناء كانت قوات «زيد» وأبناء عمومه «عريعر» ترابط في «الجشة» و «الجفر» القريبتين من الأطراف الشرقية لتلك الواحة، وبعد قتال مرير دار بين الفئات المتنافسة ظهرت سطوة «براك» في القتال وانطلق «زيد» متوجهاً بقواته نحو «المنتفق»، وتولى «براك» السلطة كحاكم ممثل للسلطة السعودية في الدرعية، واعترف بحكمه كافة أهالي ذلك الإقليم.

وهكذا انتهت استقلالية إقليم الأحساء الذي كان تحت ظل أمراء «آل عريعر» وهم من سلالة «آل حميد» الذين دام حكمهم على تلك المنطقة لمدة ١٢٤ عاماً، أي من عام ١٦٦٩ عندما قام «براك بن عريعر» الجد الأول

لـ «سعدون» و «زيد» بالاستيلاء على ذلك الإقليم وتحريره من الأتراك الذين تمكنوا بعد فترة وجيزة من استعادته. حدث ذلك عندما قامت قوة تركية عام ١٥٩٢ بقيادة «فاتح باشا» بإلحاق الهزيمة بحكام عائلة «الأجود بن زامل العميري الجبري القيسي»، وأصبح «فاتح باشا» أول والي تركي على تلك المنطقة. ويذكر المؤرخ «ابن بشر» أسماء ثلاثة ولاة تولوا الحكم من بعده هناك كان من بينهم: «عمر باشا» الذي هزمه «آل حميد». ويضيف «ابن بشر» قوله إن حكم الأتراك استمر لحوالي ثلاثين عاماً، وإذا كانت التواريخ التي أوردها «ابن بشر» حقيقية فيمكن القول إن حكم الأتراك (العثمانيين) لتلك المنطقة دام لمدة ٧٨ عاماً وتلك بالطبع هي فترة طويلة جداً من الصعب أن يغطيها أربعة ولاة أتراك فقط! لكن ربما يكون ذلك ممكناً إلا أن الاحتمال الآخر هو أنه يمكن أن يكون قد حدث خطأ في كتابة الرقم، فبدلاً من كتابة «ثلاثون» كتب الرقم «ثمانون». على أي حال تحول إقليم «الأحساء» في تلك الفترة إلى مقاطعة تابعة للحكم السعودي، الذي امتد عليه لمدة ٨٠ عاماً قبل أن يعود مرة ثانية ليصبح تحت سيطرة الحكم العثماني عام ١٨٧١. ومن جديد استمر الحكم التركي (العثماني) لهذا الإقليم لمدة ٤٢ عاماً، أي حتى عام ١٩١٣ وأخيراً تحول في ذلك العام ليصبح خاضعاً للحكم الوهابي. يعتبر هذا الإقليم من أغنى المناطق التابعة للسيادة السعودية.

وبالرغم من حملة «الأحساء» هذه جاءت في مقدمة أحداث موسم شتاء عام ١٧٩٣/ ١٧٩٤ الشديد البرودة، والتي أسفرت عن نتائج فاقت بكثير كل نتائج الغزوات التي قام بها السعوديون في تلك الفترة، إلا أنهم صعدوا أعمالهم العسكرية وأرسلوا تلك الحملة في كافة الاتجاهات، ومن بين تلك

الأعمال العسكرية كانت حملة ضخمة تقدر قوتها بألف رجل و٦٠٠ جمل، إذ قادها «عبد الله بن محمد بن معيقل» وهو من بلدة «شقراء» ووصل بها إلى مشارف سهول «ركبة» على حدود الحجاز. وهناك اشتبك مع «عتيبة» بالقرب من «بغاث» أو «برث» إلا أنهم أوقعوا بين صفوفه بعض الخسائر وصدوه عن مواقعهم.

وفي موقعة أخرى حيث كانت القوات السعودية أيضاً تحت قيادة «محمد ابن معيقل» نفسه، تمكن الوهابيون من التغلب على بني حجر» دار ذلك الاشتباك في سهول «حزم الراقي» الواقعة بين مرتفعات «ضنيب» وآبار «الثيل»، وفيه فاز السعوديون بغنائم كثيرة وقتلوا زعيم القبيلة «ناصر بن مشاري». وفي حملة أخرى تحت قيادة «إبراهيم بن عفيصان» أمير «الخرج» وابن أو أخو «سليمان» توجه السعوديون أولاً إلى «قطر» وهناك نهبوا بلدة «الحويلة» الواقعة على البحر والتي يعمل أهلها بالصيد، وبعدها توجهوا إلى «الكويت» وتمكنوا من صد هجوم معاكس قام به أهلها نتيجة كمين نصبوه لهم ولم يدخلوا المدينة. ومن أكثر هذه الحملات أهمية كانت حملة شكلت فصائلها - بتوجيهات من «عبد العزيز» - من مقاتلي «الوشم» و«القصيم» وجبل «شمر»، وكان يقود كل فصيل قائد من نفس منطقة المقاتلين، وكان كافة القادة يأتمرون بأوامر القيادة العليا لـ «محمد بن معيقل». كان الهدف من تلك الحملة التوجه شمالاً والتوغل إلى مسافات أبعد مما توصل إليه الجيش السعودي. فكانت منطقة «الجوف» النقطة المستهدفة لهذه الحملة التي عرفت في ذلك الوقت باسم «دومة الجندل» وهي منطقة تقع على أطراف الصحراء السورية. تمكنت هذه القوات من احتلال ثلاثة بلدان في تلك

الواحة، وأما باقي القرى والأماكن وبما فيها «قصر مارد» وهي القلعة الرئيسية في «الجوف»، فقد حوصرت إلى أن استسلم أهلها وانتموا إلى الدعوة السلفية وأقسموا يمين الولاء للحكم السعودي.

يمكن القول أن هذه الأحداث وقعت إما شتاء أو في الأشهر الأولى من ربيع عام ١٧٩٤ وهو العام الذي مات فيه شيخ الدرعية «سليمان بن عبدالوهاب»، وجاء موته بعد عامين من موت أخيه الأكثر شهرة.

قام «سعود» في الأشهر الأخيرة من هذا العام بغزو «ظفير» في مقاطعة «الهجرة» على الحدود العراقية، وعاد منها إلى الدرعية في شهر شباط من عام ١٧٩٥ ومعه الكثير من الغنائم، وبعد عودته أعد العدة لغزو الحجاز.

وفي شهر آيار خاض «سعود» معركة ضد «تربة» مستخدماً الأسلوب المعتاد في غزو المناطق الزراعية خارج المدن وشن مناوشات متقطعة. قتل في تلك المناوشات «محمد بن عيسى بن غشيان» وهو واحد من أبرز قادته. وباعتبار أن القتال لم يتحول من المناوشات إلى مرحلة الاشتباك الفعلي، سرعان ما وافق «سعود» على إيقاف القتال. جاء ذلك بعد أن قبض فدية وتعويضات لقاء ذلك. يبدو أن حر الصيف حد من إصرار «آل سعود» على المغامرة، إذ كان من الواضح أن قادة الدرعية كانوا يفكرون أيضاً في توسيع نطاق عملياتهم، وكانوا يفكرون بعدة طرق لتحقيق تلك الغاية خاصة أنهم تمكنوا من الوصول حتى حدود «سوريا» و «العراق».

اعتقد «غالب بن مسعود» شريف مكة أن الحملة التي شنها «سعود» ضد «تربة» ما كانت إلا انطلاقة باتجاه مواقعه، ولذلك قام على الفور بترتيب حملة لغزو «نجد» بالرغم من حر ذلك الصيف. كان هدف الشريف «فهيد»

الذي قاد تلك الحملة القضاء على قبيلة «قحطان» التي يتزعمها «هادي بن قرملة». وعليه أقام معسكره في موارد مياه «ماسل» التي تبعد حوالي خمسين ميلاً إلى الجنوب من «الدوادمي»، وبعد قتال عنيف تمكن فيه من هزيمة قبيلة قحطان وأنزل بهم خسائر جسيمة واستولى على عشرة آلاف جمل. كادت نساؤهم وأطفالهم الذين تركوهم خلفهم أن يموتوا من العطش لولا أن العناية الإلهية أرسلت عليهم مطراً من السماء روى ظمأهم.

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات الشريف تنسحب محملة بالغنائم، كان «محمد بن معيقل» يشن هجوماً ناجحاً على «عتبة» في منطقة «مرات» الواقعة في «حرة القشب» البركانية. وحدث بعد فترة قصيرة أن قدم «سعود» إلى المنطقة نفسها لغزو تجمعات «مطير» و «عتيبة». كان «غالب» مرة ثانية يعد العدة لشن غزوة على نطاق واسع ضد «نجد» انطلقت حملته تلك من «مكة» (إما في شهر كانون الثاني أو شهر شباط من عام ١٧٩٦) بقيادة الشريف «ناصر بن يحيى» متوجهة نحو مرتفعات الصحراء العربية. وعندما وصلت أخبار هذه التطورات أرسل «عبد العزيز» توجيهاته إلى «محمد بن ربيعان» زعيم «عتيبة» وإلى «فيصل الدويش» زعيم جماعة «مطير» وإلى قبائل «السهول» و «سبيع» و «الدواسر» و «عجمان» وأمرهم بأن يلتفوا حول «هادي بن قرملة» الذي كان في ذلك الوقت القائد الأعلى للقوات المدافعة. كانت في ذلك الوقت قوات «هادي» منتشرة حول مشارب مياه «الجمنية»(*) على شكل رقم ٨ بدءاً من ممر «النير» حتى ممر طريق

(*) من قرى رفحا بمنطقة الحدول الشمالية، وفيها مركز.

القوافل بين نجد والحجاز. وعند وصول قوات الشريف «ناصر» الضخمة والمجهزة ببعض المدافع، احتدمت المعركة وتكبد الطرفان خسائر جسيمة واستمرت المعارك إلى أن قامت مجموعة فرسان من قوات «هادي بن قرملة» بترجيح كفة القتال لصالحها. بعدها تفرقت قوات الشريف وفرت من أرض المعركة، وطاردها فرسان نجد وقتلوا منها حوالي ٣٠٠ رجل، وأخذوا أعداداً كبيرة من الغنائم اشتلمت على خيام «ناصر» وبنادقه. كان «عبد العزيز» قد أرسل «محمد بن معيقل» لتسانده إذا دعت الحاجة، إلا أنهم وصلوا في الوقت المناسب لمطاردة فلول القوات المعادية التي أبعدوها حتى حدود منطقة «القنصلية» بالقرب من «الخرمة»، وتمكنوا من قتل حوالي أربعين شخصاً من الرجال الفارين وأخذوا المزيد من الغنائم منهم.

كان «ابن هادي» المدعو «مبارك» في تلك الأثناء يقود حملة باتجاه حدود اليمن، واشتبك هناك مع قبائل نجران وتغلب عليها ملحقاً بها خسائر مادية. بدت كافة مناطق الصحراء العربية وكأنها في حمأة نشاطات عدائية عسكرية وكان السعوديون أثناءها يقاتلون بدافع حماس ديني متزايد، لكن حدث في شهر نيسان أن وصلت إلى القيادة السعودية أخبار عن حدوث بعض المشكلات في الأحساء، والتي تتلخص في أن «براك بن عبد المحسن» قام بتحريض شخصيات بارزة من بين الأهالي وأغواهم بالانضمام إليه وذلك في محاولة للخروج عن الحكم السعودي. رفضت قبيلة «سياسب» التي كانت تقيم في المنطقة الساحلية بالقرب من القطيف الانضمام إلى حركته وناشدت سلطات الدرعية في تقديم العون إليها، وعليه تم إرسال «إبراهيم بن عفيصان» لمعالجة تلك الانتفاضة. تمكنت جماعة «سياسب» بمساعدة من

جماعة «المبرز» (التي رفضت أيضاً الانضمام إلى ذلك التحالف) من تطويق مناطق الانتفاضة، واستسلم بعض المتمردين بمن فيهم «صالح بن نجار» أحد زعماء تلك الفتنة حتى قبل وصول قوات «ابن عفيصان» في حين أصر البعض الآخر على القتال. تمكنت قوات «ابن عفيصان» من محاصرتهم ولبضعة أيام في عدة مناطق من الهفوف إلى أن طالبوا في نهاية المطاف بوقف القتال. وافق «ابن عفيصان» على ذلك شريطة أن يتوجه زعماء الفتنة إلى الدرعية ويعربوا عن خضوعهم التام له شخصياً.

ومع حلول شهر حزيران (يونيو) كان «سعود» قد توجه إلى الوشم ليشرف على حشود قوات الجيش لشن حملة على «الأحساء». ولدى وصوله إلى «الرقيقة» ضرب معسكراً لجيشه وبقي هناك لأكثر من شهر. لم يقم خلال ذلك الشهر إلا بعمليات تطهير لبقايا قوات العدو وإعادة ترتيب القضايا الإدارية. وكانت تقع بعض الاشتبكات المتفرقة لكن لم يتمكن المتمردون من تحقيق أي تقدم، واستسلم عدد كبير من الأهالي بعد أن أدركوا أن المكابرة والاسترسال في العناد لن يفيدهم بشيء هذا، وقد قام سعود بقتل ونفي المتسببين في الحوادث السابقة، كما دمر تحصينات المدينة قطعاً لدابر الفساد فيها. كما أمر «سعود» شخصاً يدعى «نجم بن دهينم» من «الهفوف» بإلقاء القبض على كل شخص اتهم باقتراف الفظائع أثناء الانتفاضة. والجدير بالذكر أنه عندما قرر «سعود» العودة إلى الدرعية عين «نجم» حاكماً على الأحساء، وساق معه عدداً كبيراً من الرهائن. تمكن «براك» من الهرب إما خلال إجراءات توقيف المجرمين أو بعد الانتهاء منها، ويقال إنه هرب عن طريق «المنتفق» التي كانت تعاني خلال الجزء الأخير من

ذلك العام من تفشي العديد من المشكلات. كان «ثويني» الذي مُني قبل بضعة سنوات بهزيمة على أيدي «سعود» في مناطق «بني خالد» قد هرب أيضاً إلى «صفوان» وجمع حوله عدداً كبيراً من أبناء قبيلته. قام «حمود بن ثامر» الأمير الجديد بمهاجمة «ثويني» وأتباعه وتمكن من دحرهم، إلا أن «ثويني» تمكن مجدداً من الهرب عن طريق «شط العرب» ولجأ إلى جماعة «كعب».

حاول هناك - وبالتحديد في عام ١٧٨٩ - أن يحظى بمساعدة «زيد بن عريعر» لمعاودة القتال، إلا أن «زيداً» لم يستجب لمحاولاته فتوجه إلى الدرعية طالباً حماية «عبد العزيز» ومكث هناك بعض الوقت. وبعد فترة من الزمن تمكن من الهرب إلى الكويت ومنها توجه إلى بغداد ليلقي بنفسه تحت رحمة «سليمان باشا» الذي هزأه أمام الناس في «سوق الشيوخ» وبعدها عفا عنه وسمح له بالبقاء في بغداد. تمكن من الفوز بالحظوة عند «سليمان باشا» على أمل أن الباشا سيقوم في يوم من الأيام بإعادة تنصيبه زعيماً على «المنتفق». ولتحقيق ذلك الغرض حاول جاهداً إقناع الباشا بأنه إذا استعاد زعامته على «المنتفق» سيكون في موضع يمكنه من تحقيق طموحه في إخضاع «نجد» لسلطة الصدر رالأعظم. صدق «سليمان باشا» مزاعم «ثويني» وزوده بالسلاح والرجال وأرسله خلال ذلك العام ليستعيد زعامته على «المنتفق» التي أقيل منها «حمود» وفقاً لذلك الاتفاق. وما لم يمضي وقت قصير على تولي «ثويني» للزعامة هناك حتى قام بحشد القوات لتنفيذ المهمة التي ألزم نفسه بها. وبمساعدة رجال قبيلته له الذين كانت تدعمهم فرق من البصرة والزبير، استطاع «ثويني» حشد كامل القوات في «ظفير». وهناك وجد أن

قبيلة «بني خالد» كانت مستعدة تماماً للانضمام إليه تحت قيادة الهارب «براك»، فحشد كامل قوة جيشه في الجهرة وبقي هناك لمدة ثلاثة أشهر ليتمم خططه ومعداته اللازمة للقيام بذلك الغزو المدروس بعناية، وانضمت القوات التركية القادمة عبر البحر عن طريق البصرة إلى قواته، في حين حملت باقي القوات بالسفن وسارت بشكل مواز لسير قواته البرية المتجهة إلى «القطيف». والجدير بالذكر أنه كان مقرراً أن تكون «القطيف» قاعدة لعملياته التي تستهدف الأحساء.

أصدر «عبد العزيز» أوامره بحشد كل القوات المتمرسة المحلية للتصدي إلى ذلك التهديد، كما عَيّن «محمد بن معيقل» في منصب القائد العام لتلك القوات. وعندما حان الوقت المناسب غادرت كافة تلك القوات الدرعية باتجاه مشارب منطقة «قرية» في مقاطعة «طاف». وأصدر «عبد العزيز» أوامره أيضاً لكل القبائل البدوية بالتحرك بكل أمتعتهم وحتى أسرهم وماشيتهم باتجاه ديرة «بني خالد»، وأمرهم باحتلال الآبار هناك والدفاع عنها ضد أي هجوم أو غزو.

إضافة إلى هذه الترتيبات تقدم «سعود» على رأس مجموعة قوية من حرسه الخاص والذين هم من رجال «العارض» ومن رجال المناطق الوسطى وعسكر في «روضة التنهاة» الواقعة على الطرف الغربي من الدهناء؛ ثم تحرك من هناك باتجاه «حفر العتش» واستراح فيها لمدة شهرين.

تقدم «ثويني» نحو مقاطعة «طاف» وتراجع السعوديون المتواجدون في منطقة «قرية» إلى أن وصلوا جنوباً إلى موارد مياه «جودة» و «أم ربيع».

أرسل «سعود» قوة من حرسه الخاص بقيادة «حسن بن مشاري» لدعم موقف «محمد بن معيقل» وليكون بالتالي ستاراً يحمي جماعات البدو. أدخلت التحركات التي قام بها «ثويني» باتجاه آبار «شباك» الرعب في قلوب الأهالي هناك، وعند تلك المرحلة من تطور الأحداث تدخلت العناية الإلهية إذ قام أحد العبيد باغتيال «ثويني» عندما كان يراقب انتشار قواته وماشيته حول مصادر المياه. وعلى الفور قام رجال «ثويني» بذبح ذلك العبد وحجبوا لفترة من الزمان أخبار مصرع «ثويني» عن الجيش لمنع حدوث الذعر في صفوفه. إثر ذلك الحدث تم تعيين «ناصر» أخو «ثويني» زعيماً على القبيلة خلفاً لأخيه، إلا أن «براك» الذي كان على اتصال سري مع «حسن بن مشاري» الذي لم يكن مسروراً لتعامله مع زغيم «المنتفق»، قرر أن الوقت قد حان ليغير موقفه ويناصر الطرف الآخر. أحدث تراجع قبيلة «بني خالد» وسحب دعمهم رعباً في صفوف القوات الغازية التي سارعت في التراجع، وعليه قامت القوات السعوديون بمطاردتها حتى ضواحي مدينة الكويت ومشارفها، واستولى السعوديون على معسكر وسلاح وذخيرة فلول تلك القوات، كما جمعوا الكثير من الغنائم أثناء مطاردتهم لقوات «المنتفق».

تمت هذه الأحداث مع نهاية شهر حزيران من عام ١٧٩٧. وبعد أن وزع سعود» الغنائم في أرض المعركة توجه بقواته إلى «الهفوف» ليحظى مجدداً بتأكيد الأهالي هناك على ولائهم للحكم السعودي. وأثناء استراحته القصيرة هناك والتي حدثت في أوائل الخريف، هطلت الأمطار الموسمية بغزارة في معظم مناطق «نجد» وعلى نحو غير مألوف. دمرت فيضانات شعيب «عجيمي» بلدة «الدلم»، كما سقطت على «حريملاء» حبات ثلج

(برد) عنيفة أحدثت أضراراً جسيمة في واحات النخيل والمحاصيل، وتسببت في انهيار العديد من المنازل والأسوار. حدث أيضاً - إما خلال صيف العام نفسه أو خلال صيف العام التالي - فيضان عنيف خلف دماراً في مناطق «الحوطة» و «وادي حنيفة»، علاوة على الدرعية نفسها تكبدت خسائر كبيرة، وكذلك تكبدتها منطقة العيينة.

لم توقف العوامل الطبيعية تلك الغزوات، فحدث أن قام زعيم «الدواسر» بغزو قبيلة «شهران» الحجازية القريبة من «بيشة»، كما قام «محمد بن معيقل» بغزو جزيرة «العمير» في الخليج العربي والتي كانت أول منطقة عبر البحار تنضم إلى الحكم السعودي على حساب «البحرين».

إثر موت «ثويني» جدد «سليمان باشا» تعيين «حمود بن ثامر» كزعيم على منطقة «المنتفق»، وذلك كخطوة أولى ضمن سلسلة من خططه الهادفة لاستئناف أعماله العدائية ضد السعوديين في تلك الأثناء تولى الشريف «غالب» عجلة استمرار الغزوات وقام بحملة ضد «القحطانيين» الذين كانوا متجمعين قرب مصادر المياه في «العقيلان»(*) شمال «بيشة»، لكن قواته التي عجزت عن التقدم إلى موارد المياه وأنهك العطش قواها، وأصبحت فريسة سهلة للبدو الذين انقضوا عليهم وأوقعوا بينهم خسائر فادحة. تبع هذه الحادثة هجوم شنه زعيم الدواسر «ربيع بن زيد» ضد واحة «بيشة»، فدفع بقواته بشراسة لدرجة أن الأهالي هناك أعلنوا استسلامهم وخضوعهم له لكن سرعان ما تعرضت قوات «ربيع» لهجوم مضاد شنه عليه الشريف «فهيد بن عبد الله» الذي كان «غالب» قد أرسله على رأس فرقة قوية لذلك

(*) واد فيه مياه شمال غرب القصيم، بقرب الغما.

(**) من موارد العقاليه من مطير، بمنطقة عفيف، في إمارة الرياض.

الغرض، إلا أن قوات «ربيع» تمكنت من دحرها واستسلمت رغم غياب القوات السعودية المساندة. بعد ذلك هاجم «فهيد» في طريق عودته منطقة «رنية» لكنه لم يحرز سوى انتصار محدود، وهاجم «هادي بن قرملة البقوم» في منطقة «تربة» المجاورة، وفتح عليها جبهتين من اتجاهين اثنين.

حدثت هذه العمليات مع نهاية عام ١٧٩٧ وبداية عام ١٧٩٨، وفي تلك الفترة كان «عبد العزيز» قد أرسل قوة من «الأحساء» لمهاجمة الكويت. تمكنت تلك القوة من الاستيلاء على عدد كبير من الجمال التي كانت ترعى في المراعي، كما تمكنت من صد هجوم قامت به حامية موجودة هناك وأوقعت بها خسائر جسيمة، علماً بأن المهاجمين فشلوا في إحراز أي مستقر لهم في المدينة.

وفي الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية أرسل «حمود بن ربيعان» زعيم قبيلة «عتيبة» رسولاً إلى «عبد العزيز» يعرض عليه استسلام وخضوع القبيلة إلى الحكم السعودي. والجدير بالذكر أن قبيلة «عتيبة» لم تكن حتى يومنا هذا تحت قيادة الحجاز. على أي حال عرض الرسول على «عبدالعزيز» استعداد القبيلة لدفع تعويض عن المخالفات والانتهاكات التي اقترفوها في الماضي، وفعلاً تم ترتيب أمر هذا الولاء حسب الأصول إلا أن انشقاق قبيلة «عتيبة» أثار حفيظة غالب ودفعه على التحرك، فما كان منه إلا أن قاد حملة بنفسه بمهاجمة «هادي بن قرملة» زعيم قبيلة «قحطان». وبعد معركة في الصحراء أصيبت فيها قوات «هادي» أثناء تبادل الهجمات بخسائر كبيرة اضطرته للتراجع إلى منطقة «رانيه» في حين استمرت قوات «غالب» التي كانت معسكرة في «القنصلية» بهجومها العشوائي المتفكك على الواحة دون

أن تسفر جهودها عن أية نتائج قيمة. في تلك الأثناء أخذت أسهم السعودية ترتفع في المناطق الغربية، كما أن انشقاق «البقوم» وانضمامها إلى المعسكر السعودي جاء بمثابة صفعة عنيفة أخرى في وجه «غالب».

غير «عبد العزيز» وجهة غزواته وأصبح يتجه شمالاً. فأرسل «حجيلان ابن حمد» أمير «بريدة» لغزو «الشرارات» على الحدود السورية. حقق ذلك الغزو نتائج باهرة فاستطاعت القوات السعودية قتل حوالي ١٢٠ رجلاً من رجال تلك القبائل، كما جمعت غنائم ضخمة تم توزيعها بين خزينة الدولة السعودية والجنود المنتصرين. وفي العام نفسه قاد «سعود» قوة ضخمة وتوجه بها إلى الحدود العراقية، وأول ما غزا هناك كان «سوق الشيوخ»، وبعدها غزا «السماوة» وهناك اشتبك مع تجمعات بدوية قوية وبالتحديد من بدو «شمر» و «الظفير»، ودارت معركة بين القوات السعودية وقبائل البدو بقيادة «مطلق بن محمد» زعيم «الجرباء» بالقرب من آبار «الأبيض» وقتل في تلك المعركة «مطلق» وتمكنت القوات السعودية من الاستيلاء على معسكرات البدو وعلى كافة محتوياتها، لكنها تكبدت خسائر فادحة إذ سقط من بين قتلاها «براك ابن عبد المحسن»، وكانت تلك نهاية حياته المفعمة بالأحداث المتقلبة.

بينما كان «سعود» منشغلاً بغزواته في شرق البلاد، كان الشريف «غالب» يقود قوات كبيرة مدعومة بقوات مصرية ومغربية لمهاجمة الواحات الجنوبية الغربية. وبالرغم من قطع العديد من أشجار النخيل والمناوشات العنيفة التي قامت بها قواته خلال استراحتها التي دامت ثلاثة أسابيع، إلا أنه فشل في إضعاف قوة المدافعين. وعليه توجه إلى «بيشة» وهناك تمكنت قواته

(بتشجيع وتغاضي من قبل جماعات صديقة له) من التغلب على كل الواحة وإخضاعها له، وساعده في ذلك الهجوم وتستر عليه «جنينة» و «روشان» الشخصيتان الرئيسيتان في جانب السعوديين.

وكما يشير المؤرخون عاد «غالب» مزهواً بنفسه مسروراً بما أنجزه، وتوجه في طريق عودته إلى «الخرمة» وأقام معسكراً هناك انتشرت فيه جحافل قواته. وفي تلك الأثناء غارت عليه قوة كبيرة من قوات الدولة السعودية بقيادة «هادي بن قرملة»، واجتاح ذلك الهجوم العنيف كل ما كان أمامه، فما كان من قوات «غالب» إلا أن انهارت وتفرقت ولاذت بالفرار تاركة كل ما في المعسكر من غنائم إلى السعوديين الذين طاردوهم دون هوادة وأوقعوا بينهم العديد من القتلى وسلبوا كل ممتلكاتهم، وبلغ عدد القتلى بين رجال «غالب» ١٢٢٠ قتيلاً بما فيهم الشريف «مسعود بن يحيى بن بركات» وابن أخيه «هزاع»، وعدد آخر من كبار الزعماء. هذا وخسرت القوات العثمانية والمصرية والمغربية التي كانت تقاتل إلى جانب قواته ما يزيد على ٦٠٠ رجل. علاوة على ذلك استولى السعوديون على رواتبهم التي كان من المفروض أن توزع عليهم في صباح اليوم التالي.

وفي سياق عرضه للأحداث يتحول المؤرخ «ابن بشر» ليحدثنا عن أحداث مثيرة تتعلق بالاحتلال الفرنسي عام ١٧٨٩ لكل من مصر وفلسطين، ويزودنا بوصف مؤثر لمعركة «الفدان» ووصف آخر عن وصول الأسطول البريطاني الذي يقول بأنه حصل على صورة مصغرة له من سجلات الطائف التي وجدها عند احتلال «عثمان المضايفي» لها. لكن تلك القضية لا تعنينا كثيراً لما نحن بصدد أحداث الصحراء العربية. إن استمرار

الحروب الطائفية في الصحراء والتجاهل التام وعدم الإكتراث بما يحدث في العالم من أحداث (كان من الممكن أن تنتشر لتصل إلى الصحراء العربية وإلى الأماكن المقدسة فيها) ليؤكد على منحى الصحراء العربية عن تلك الأحداث باستثناء الانتصارات التي حققها البريطانيون على قوات نابليون التي توجت بانتصارها على الهند. وحسب ما يقول «ابن بشر» نقل رجل من «بني حرب» أخبار معركة الفدان إلى مكة وكان ذلك الرجل الشخص الوحيد الذي كتبت له الحياة من بين مجموعة من رجال عشيرته التي كانت تحارب إلى جانب الأتراك. وتجدر الإشارة هنا إلى أن رجلاً ادعى أنه شاهد «نابليون» في معركة الفدان عام ١٧٩٩ وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاماً، وأخبر الملك «حسين» الذي كان آنذاك ملكاً على الحجاز بقصة معركة الفدان.

وبعد انقضاء صيف العام نفسه والذي هزم فيه «غالب» في منطقة «الخرمة» خلال شهر آذار من عام ١٧٩٨، كلف «عبد العزيز» زعيم قبيلة «الدواسر» والمدعو «ربيع بن زيد» بشن هجوم على «بيشة». قاد «ربيع» قوة تشتمل على عناصر من قبيلة قحطان وأغار على القرى الصغيرة حول الواحة، واستولى على بعضها بهجوم عاصف واستسلم بعضها الآخر، واستمر الهجوم إلى أن استسلمت «روشان» وأعربت عن ولائها لـ «سالم بن محمد بن شكبان» الذي كان «عبد العزيز» قد عيّنه أميراً جديداً على كافة تلك المنطقة. لكن مع بداية العام القادم أعد «سليمان باشا» والي العراق جيشاً كبيراً ضم عناصر نظامية عدد من البدو، وزوده بعدد من المدافع وبحوالي ١٨ ألف فارس وذلك لغزو الأحساء.

سارع أهالي «الهفوف» و «المبرز» وقرى الواحة هناك إلى الاستسلام لـ

«علي كيخا» قائد ذلك الجيش، إلا أن الحامية العسكرية في «الهفوف» والحامية العسكرية في «قصر «صاهود» بالمبرز والتي كانت تحت إمرة «إبراهيم بن سليمان بن عفيصان» و «ماجد بن سليمان» من ثادق واجهتا الغزاة الذين بدأوا هجومهم بمهاجمة منطقة «المبرز».

مارس «علي كيخيا» (ولمدة استمرت من بداية شهر شباط وحتى بداية شهر نيسان (ابريل) من عام ١٧٩٩) كافة الأساليب المتبعة في فرض الحصار، وذلك للنيل من حامية «ماجد» المؤلفة من حوالي مائة رجل. كرر هجماته على أسوارها إلا أنه لم يتمكن منها، وعندما وصلت أخبار تقدم «سعود» لتخفيف الضغط عن حامية «ماجد» والقادة الآخرين، قرر «علي كيخيا» أن يرفع الحصار ويغادر تلك المنطقة، لكن قبل مغادرته أقدم على حرق كافة المعدات التي استخدمها في الحصار، كما دفن ذخيرته في رمال الصحراء.

وعندما سمع «سعود» بهذه التطورات سارع إلى منطقة «ثاج» ليعترض مسير قوات العدو التي توقفت لتعيد ترتيب أوضاعها ولتستعد للمعركة التي حدثت في وقت لاحق بمنطقة آبار «شباك». وبعد عدة أيام من المناوشات العشوائية المتقطعة من قبل الجانبين، اقترح «علي كيخيا» إمكانية التوصل إلى هدنة. وافق «سعود» على ذلك الاقتراح كما وافق على عدم التحرش بالقوات التركية أثناء عودتها إلى ديرتها. وتوجه «سعود» بنفسه إلى «الأحساء» ليشرف على إعادة بناء القلاع والمراكز الدفاعية الأخرى في تلك المنطقة، وعَيّن «سليمان بن محمد بن ماجد» أميراً عليها، وتجدر الإشارة إلى أن سليمان هو والد بطل معركة «المبرز». لم يصل «سعود» إلى الدرعية

إلا في منتصف الصيف هناك وصلته أخبار نجاح حملة الحج التي قام بها فريق من «الوشم» و «القصيم» بقيادة أمير «شقراء» الذي كان برفقة كلاً من «علي» و «إبراهيم» ابنا المرحوم الشيخ «محمد بن عبد الوهاب». والذين ساهموا في إنجاح هذه الحملة كان حقيقة أن «غالب» وبعد هزيمته في «الخرمة» كان قد أرسل رسالة إلى «عبد العزيز» وعده فيها بتوخي السلام بين الطرفين، كما وجه دعوة إلى القائد السعودي ناشده فيها السماح لرعاياه بالتوجه إلى الحج كما كان الحال في السابق.

شجعت هذه التجربة التي خلت من الأحداث والمشكلات، السعوديين على معاودة الحج في شهر نيسان من العام التالي، لكنها تمت على نطاق أوسع من ذلك بكثير، إذ قام «سعود» بأول رحلة حج له شارك فيها زعماء «نجد» ونساؤهم وأطفالهم، وسارت أمور تلك الحملة على ما يرام واستقبل «غالب» الأمير «سعود» بكل الحفاوة والتكريم ودعاه للعودة في حج العام القادم بصحبة والده. يبدو أن الطرفين قد تجاوزا خلافاتهما إلى الأبد، علماً بأن لديهما كل الأسباب الدينية والدنيوية التي تجعل كل فريق يكره الآخر، وعلى أي حال وبعد مضي اثني عشر شهراً انطلق «عبد العزيز» من الدرعية وكان عمره آنذاك ثمانون عاماً، وبعد مسير دام لمدة سبعة أيام شارك فيه ابنه الأمير «سعود» وعدد كبير من أهالي الدرعية، شعر «عبد العزيز» لدى وصول القافلة إلى «الدوادمي» بوعكة صحية، وقرر أن يعود إلى الدرعية وكلف ابنه «سعود» بأن يحج نيابة عنه (ويهب الحجة له).

ومرة ثانية حظي الأمير «سعود» بكل الحفارة والترحيب من قبل شريف مكة. وفي هذه المرة قدّم الأمير «سعود» مبلغ كبير من المال إضافة إلى الهدايا

وطلب توزيعها على فقراء الحرمين، ثم عاد إلى الدرعية هو مسرور جداً بعلاقات الصداقة التي تبدو قد ترسخت جذورها بين جيرانه من الناحية الغربية.

استمر تعليق أو تعطيل العمليات العسكرية لمدة عامين: أو على الأقل يمكن القول أنه لا توجد وثائق تاريخية تدل على حدوثها - ويبدو أن الهدنة التي اقترحها «غالب» قد طبقت ضمنياً على كافة الجبهات. لكن يبدو أن «سعود» أخيراً كسر طوق هذا السلام وأعد حملة خلال شتاء عام ١٨٠١/ ١٨٠٢ واتجه بها نحو الحدود العراقية، وبعد المناوشات المعتادة والمتقطعة والغير هادفة ضد «المنتفق» و «الظفير» وجد نفسه في شهر آيار من عام ١٨٠٢ أمام مدينة «كربلاء» المتميزة دينياً بالنسبة للشيعة. وبعد أن حاصرها لفترة وجيزة شن عليها هجوماً عاصفاً وقضى على المظاهر الشركية التي كانت تعلو القبور وسويت قبابها بالأرض وفق تعاليم الدين الإسلامي وحمل فيها من مجوهات وبعد ذلك عاد سعود إلى موارد مياه الأبيض بالقرب من «الماوة» وهناك عسكر «سعود» ليحصي الغنائم وليوزعها وفق الأسلوب التقليدي المعروف. عاد بعد ذلك إلى الدرعية ليتلقى تهاني والده وتهاني أهالي الدرعية على نجاحه في أول ضربة شجاعة جاءت لتخدم حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التصحيحية والتي وجهها «سعود» ضد نظام كان في نظر اتباع الشيخ تجسيداً حياً للشرك. كانت تلك وبالتأكيد عملية وصلت أصداؤها إلى مسافات أبعد من حدود الطائفة الشيعية، لكنها ربما كانت بداية انطلاقة ثورة ضد قادة دعوة الشيخ محمد وبالفعل أسفرت عن نتائج مفجعة بالنسبة للحكم السعودي. وسرعان ما تمت ممارسة المنهج

الذي استخدم ضد «كربلاء» في المدن الإسلامية المقدسة في الحجاز. وكانت تلك الممارسة مقدمة لبدء موجة أعمال الانتقام، إذ قام أحد ضحايا الأعمال التي وقعت في «كربلاء» بتوجيه أول انتقاماً لما لحق بمقدسات الشيعة في كربلاء.

وعند حوالي منتصف شهر آيار من عام ١٨٠١ كان حاكم مسقط «سلطان ابن أحمد بن سعيد» يعد حملة بحرية ضخمة. توجه سلطان بتلك الحملة ضد جزر البحرين التي لم يواجه أية صعوبة في نزعها من أيدي زعماء آل خليفة «العتوب» الذين كانوا قبل حوالي نصف قرن قد استولوا عليها من فارس.

ناشد زعيم آل خليفة السلطة في الدرعية أن تقدم له المساعدة لاسترداد تلك الجزر، وبعد نضال عنيد تم طرد الغزاة من الجزر وتكبدوا خسارة في الأرواح بلغت ألفي رجل.

وإذا رجعنا إلى المجرى الرئيسي لأحداث الدولة السعودية والتي تمت عام ١٨٠٢ وإلى الفترة التي شهدت موت زعيم عتيبة «حمود بن ربيعان»، إضافة إلى موت «سليمان باشا» المروع والذي خلفه «علي كيخيا» كوالي على بغداد، نجد أنه حدث ترد في العلاقات بين الدرعية ومكة. ويعود سبب ذلك التردي إلى حادثة لا يمكن أن يلام بسببها أي من الشخصيات الرئيسية من كلا الجانبين، علماً بأن النتائج الي ترتبت على ذلك الحدث زعزعت الانفراج الهش في العلاقة بين الطرفين والذي برز إلى حيز الوجود إثر هزيمة «غالب» في منطقة «الخرمة». قام «غالب» ولأسباب مجهولة بعزل كبير وزرائه «عثمان بن عبد الرحمن المضايفي الذي توجه إثر ذلك إلى

الدرعية ليقدم خدماته وولائه للدولة السعودية. وبعد أن استقبله «عبد العزيز» وكذلك «سعود» بالترحاب كحليف واعد، رجع «عثمان» إلى ديرته «العبيلة» الواقعة عند سهول مرتفعات الطائف، وهناك سرح كافة بدو الحجاز من الخدمة في صفوف «غالب». جمع حوله نواة جيش يمكن أن يساعد فيه أي عمليات عسكرية يمكن أن يقوم بها الوهابيون ضد سيده السابق.

قام «غالب» بمبادرة الهجوم على «العبيلة»، إذ قاد قوة ضخمة تشتمل على أعتى القوات النظامية، إلا أنه فشل في التأثير على المتمردين وتراجع إلى الطائف ليعيد تجميع قواته، وفي أعقاب ذلك تلقى «عثمان» استجابة رائعة لطلبه في تأمين تعزيزات تساعده على الهجوم على قوات الشريف، إذ قدم «سالم بن شكبان» لنجدته على رأس فرقة من «بيشة»، كما تقدم من مناطق «تربة» «مسلط بن قطنان» على رأس قوة من «سبيع» المستوطنين في مناطق «البقوم». وكان «هادي بن قرملة» في المقدمة على رأس محاربين من قحطان ومن العتبان. زحف «عثمان» بقواته نحو الطائف التي كان «غالب» قد عززها وحصنها للدفاع عنها، إلا أن منظر الأعداد الضخمة التي احتشدت ضده أملت عليه التراجع ولذلك سحب قواته النظامية إلى مناطق آمنة في مكة، تاركاً مدينة الطائف تحت رحمة أعدائه الذين احتلوا دون أية مقاومة عملية.

وعندما وصلت أخبار هذه التطورات المرضية إلى «سعود» استدعى كافة القوات السعودية من القبائل والحضر، وتقدم بها إلى «السبلة» بالقرب من

«الزلفي» وهناك بقي لفترة قصيرة ليرتب قواته. تابع بعد ذلك مسيره ووصل إلى مشارف الحجاز في نهاية شهر آذار من عام ١٨٠٣ وعسكر بقواته بالقرب من آبار «عشيرة» في وادي «العقيق». مكنه ذلك الموقع من السيطرة على الممرات الجبلية المؤدية إلى سهول مكة. وكانت تلك فترة يؤدي المسلمون فيها فريضة الحج، وكان الحجاج من سوريا ومصر والمغرب، إضافة إلى الحجاج المرافقين لسلطان مسقط متجمعين في مكة أيضاً. وكانوا بالطبع مسلحين وبإمكانهم صد أي غزو عليهم. أبدوا في البداية استعداداً لشن هجوم وقائي إلا أن مجالسهم اختلفت في الرأي، وأخيراً قرروا العودة إلى ديارهم طالما أن الطرق الساحلية كانت لا تزال مفتوحة أمامهم.

أصاب الذعر «غالب» وسحب قواته النظامية من مكة وتراجع بها إلى «جدة» وأخذ معه كل ممتلكاته ومخزونه من المؤن.

حل «سعود» معسكره وتوجه بقواته إلى منطقة «السيل الكبير» وهناك اغتسل السعوديون وأحرموا استعداداً لدخول شعائر مكة. وبالفعل دخلوا مكة دون أية مصادمات وأعلن «سعود» عفواً عاماً عن الأهالي ووزع الهبات والصدقات السخية على الناس قاطبة وبدون استثناء، وأدى رجاله شعائر العمرة. وبعد ذلك مباشرة نشر «سعود» قواته من أجل المهمة التي كان يعتقد أنه مُثاب عليها وهي البحث عن القباب التي بنيت فوق قبور الأبطال والبطلات في صدر الإسلام والعمل على إزالتها.

استمر السعوديون في هذا العمل لعدة أسابيع، لدرجة أن أي بناء مخالف في الشكل للتعاليم الإسلامية تعرض أيضاً للزوال وتحول إلى أنقاض.

كان «غالب» في تلك الفترة يحاول كسب الوقت لتعزيز مواقعه حول «جدة»، والتالي ليتسنى له تحميل كل ما هو ثمين من ممتلكاته على السفن الراسية في الميناء لتكون جاهزة إذا اقتضت الضرورة. وكان أيضاً يرسل الرسل إلى «سعود» ويقترح إجراء تسوية ودية لخلافاتهم، لكن «سعود» بعد أن عين «عبد المنعم بن مساعد» أميراً على مكة (وهو أخ لغالب)، تقدم بقواته نحو «جدة» على أمل الاستيلاء عليها بهجوم عاصف، لكنه بعد أن وجد أن التحصينات حول «جدة» كانت قوية للغاية ولا يمكن مهاجمتها بشكل مباشر نظراً لأن غالب كان قد بنى حولها سوراً وحفر حوله خندقاً من الماء، قرر أن يرجع إلى «مكة». وفي مكة وضع في كل حصن من خصونها حاميات عسكرية قوية وبعدها رجع إلى «نجد» في منتصف صيف عام ١٨٠٣، وبقي في الدرعية دون القيام بأي نشاطات عسكرية.

إن الاستيلاء على مكة واحتلال جنوب الحجاز باستثناء «جدة» لم يترك للسعوديين الكثير من العمل الذي يجب إنجازه ليتم به إنهاء الإنجازات الباهرة التي حققها «عبد العزيز» خلال فترة حكم له زادت على ٣٨ سنة. علاوة على تلك الفترة المليئة بالأعمال النشطة والتي امتدت لأكثر من نصف قرن كان خلال السنوات الأولى منها الساعد الأيمن لوالده في كل حملاته وغزواته المحلية التي أرست الأسس التي توجب عليه أن يبني عليها صرح إمبراطوريته الخاص به.

بلغ «عبد العزيز» في هذه الفترة سن الثانية والثمانين عاماً، لكن المرض الذي أصابه قبل عامين ومنعه من تحقيق أمنيته في حج بيت الله كان مؤثراً

على تردي صحته في آخر أيامه. ويقال إنه في آخر أيامه أصيب بسكتة دماغية وكان الناس يدعون له ربهم بالشفاء، وكانوا يوزعون الصدقات بسخاء وجود على كافة الفقراء في المدن والقرى التابعة لحكمه. وعلى أي حال لم يكن مقدراً لحكمه أن يدوم لفترة أطول من ذلك، علماً بأن الطريقة التي انتهى بها حكمه كانت غير متوقعة ومأساوية: حدث أن كان «عبدالعزيز» في وسط الصف الأول من المصلين الذين كانوا يؤدون صلاة العصر إما في اليوم الثاني (أو الثالث أو الرابع) من شهر تشرين أول (اكتوبر) في المسجد الكبير في «طريف» والتي تعتبر قلعة الدرعية، إذ قام أحد الغرباء والذي اعترف بأنه كان من «الدراويش» بالهجوم على «عبد العزيز» أثناء السجود. كان ذلك الرجل جالساً في الصف الثالث من صفوف المصلين ومباشرة خلف «عبد العزيز»، وفجأة ألقى بنفسه على «عبد العزيز» وطعنه بسكين في ظهره نفذت إلى معدته، وكان أخوه «عبد الله» ساجداً في تلك اللحظة بجانبه، وحاول ذلك الرجل قتل «عبد الله» أيضاً فأصابه بجرح بليغ إلا أن عبد الله شهر سيفه بسرعة وضرب ذلك الرجل وهرع باقي المصلين وأجهزوا عليه. أصيب الناس في المسجد بالذعر إلا أن سرعان ما عاد الهدوء إلى المسجد عندما علم الناس حقيقة الأمر. أرسل رسول إلى «سعود» الذي كان في حينها في واحة «مشيرفة» وتم استدعاؤه إلى الدرعية. كان «عبد العزيز» فاقداً للوعي لكنه على قيد الحياة إلى قلعته، لكنه لم يعش طويلاً وفارق الحياة بعد حين.

لم يكن بالإمكان رد الحياة إلى الميت، كما أن القاتل كان قد نفذ فعلته.

ولدى وصوله إلى مسرح الجريمة تولى «سعود» زمام الأمور وأخذ يعزي الناس بفقدان الزعيم العظيم ويطلب منهم الهدوء والحرص على واجباتهم تجاه الدين الإسلامي، وبعد ذلك وفي المكان نفسه جدد الموالون المخلصون له البيعة والولاء بمناسبة تعيينه وريثاً للعرش.

يعتقد أن المقصود من محاولة الاغتيال تلك كان شخص الأمير «سعود» ويقال إن ذلك انتقاماً من الأعمال التي قام بها في «كربلاء» وهي موطن القاتل. والمقولة الأخرى وهي الأقل احتمالاً أن القاتل كان من أكراد «العمارية» التي تقع بالقرب من «الموصل» ويدعى «عثمان»، ويقال بأن الدافع وراء إقدامه على ذلك العمل غير معروف باستثناء فرضية مفادها أنه قبض مبلغاً من المال ليقوم بذلك العمل لعدم توافر أي سبب ديني آخر يدفعه إلى القيام به، وذلك لكونه سني وليس من الشيعة.

وفي معرض نعيه لـ «عبد العزيز» ينظم «ابن بشر» قصيدة بدوية ملحمية يصور فيها ظروف وأحوال نجد خلال فترة حكمه. ونادراً ما ضمنت الحملات والغزوات التي حدثت خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر تنفيذ البيانات التي صدرت عن «عبد العزيز» بخصوص الأمان المطلق حيال مفاجآت الزمن والتأمين على الممتلكات في كافة أرجاء مملكته، وخاصة المترامية الأطراف منها حيث كان من الممكن أن تترك الجمال والخيول ترعى دون حراسة أو بحراسة رجل واحد. ومما لا شك فيه أن هدف «عبد العزيز» و «سعود» تجسد في العمل بشكل دؤوب لا يعرف الكلل من أجل تحقيق مثل تلك المثل، لكن كان مقدراً لتلك المثل أن تكون من نصيب

الأجيال التالية المقدر لها أن تعمل على تحقيقها في الصحراء العربية. هذا ولا غبار على الإطلاق في مدى ورع وإحسان «عبد العزيز»، لكنه عاش عمره في عالم مليء بالشر، كما أن المهمة التي كلف نفسه بها وهي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» كانت تتطلب ذراعاً قوية لتحمي وتدافع عن الضعفاء ضد الأقوياء. كان يضع تلك المهمة نُصَب عينيه دون تردد أو خوف، في حين كان صبره على ثورة المتمرين ضد سلطته (حتى تحت أحلك الظروف) بارزاً ومتميزاً مثل تميز نجاحه في اللجوء إلى القوة في ترويض أشرس الرجال وإخضاعهم إلى سلطته. كان الناس يدفعون الجزية له باستمرار تحت طائلة فرض عقوبات جوهرية في حال تأخرهم أو تهربهم من دفعها، كما أن الناس كانوا يلبون دعوته (سواء في القرى أو في القبائل) للانضمام إلى القوات المقاتلة التي كان من حق الدولة تأمينها لخدمة الأغراض العسكرية... لبى الناس الدعوة تحت طائلة فرض عقوبات على المتخلفين.

لم يزودنا المؤرخ «ابن بشر» بتفاصيل كاملة عن المصادر والموارد الاقتصادية للدولة في أيام «عبد العزيز»، لكنه زودنا فقط ببعض المعلومات عن هذا الموضوع، وذلك ليوضح الوسائل التي كانت متبعة في تمويل احتياجات الحكومة. فعلى سبيل المثال يقول «ابن بشر» إنه في سنة من السنوات وصلت أموال الجزية التي دفعتها قبيلة «مطير» إلى ٣٠ ألف ريال (أي حوالي ثلاثة آلاف جنيه استرليني من الذهب)، وحدث أنه في العام نفسه دفع البدو إلى الخزينة المركزية مبلغاً قده ٤٠ ألف ريال، ودفعت قبيلة «هتيم» الأقل شأناً مبلغاً وصل إلى سبعة آلاف ريال. وبالإضافة إلى هذه

الضرائب النظامية التي كانت تُفرض على الماشية وواحات النخيل والمحاصيل الأخرى (والتي لا تتوافر لدينا معلومات عنها)، فقد جلبت الحملات العسكرية المتكررة والتي كانت السلطة السعودية تنظمها مبالغ كبيرة إلى خزينة الدولة. وكان لخزينة الدولة الحق في خمس غنائم الحرب. ولهذا يبدو أن الدولة الوهابية كانت في حالة جيدة لكن متواضعة لذلك، لأن نفقات المؤسسات والمنشآت الدينية والتربوية كانت تمتص نسبة كبيرة من عائدات الدولة، ناهيك عن أعمال ونفقات الصدقات والتبرعات الخيرية. وعلاوة على ذلك كان من الصعب تجنب التكاليف المترتبة على كرم الضيافة. ظل نمط الحكم وإدارة شؤون الناس والذي جاء وريث ظروف وأحوال سادت في الصحراء العربية على مدى قرون عديدة سبقت الحكم السعودية، على الحالة التي كانت متبعة في منتصف القرن الثامن عشر. . . واستمر حتى يومنا هذا، لكن لا بد من أن تطرأ بعض التعديلات على كافة جوانب هذا النمط نظراً لتدفق الخيرات التي تميزت بها الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية.

كان الناس يفهمون وببساطة أن ليس لديهم أي سبب اقتصادي يدعو إلى عدم الرضا على حكامهم، إذ تعرضوا في الماضي لكوارث طبيعية مثل المجاعة والجراد ووباء الطاعون. أدرك الناس أيضاً أن حكامهم كانوا يرقون إلى سدة الحكم أو كانت تتم الإطاحة بهم نتيجة أسباب شخصية وليس نتيجة أسباب اقتصادية. ولا تزال بعض معالم الأسلوب القديم سائدة بالرغم من التحديث الذي طرأ على ظروف الحياة، ومثال ذلك التزام الدولة بتقديم الخدمات المالية الغير عائدة بالربح عليها والمتعلقة بالخدمات الدينية وأعمال الصدقات وكرم الضيافة.

ولا تزال السلطة المركزية كما كانت في السابق مركزة في شخص الحاكم الذي كان مطلق الحرية في اختيار الأشخاص الذي يسيرون أمور مختلف دوائر الدولة وعلى أعلى المستويات، ولم يطرأ على ذلك النظام سوى تعديلات بسيطة لوحظت على صعيد الأمور التي كان من صلاحية القاضي والحاكم التصرف فيها (تماماً كما كانت الحال في أيام «عبد العزيز» الأول) والتي تستعبد تدخل الرسميين القائمين على جمع الأموال والإشراف على عائدات الدولة الواجب تحصيلها من مصادر ومناطق مختلفة.

وعليه فإن لمحة سريعة عن الإطار الإقليمي الذي استنبطه «عبد العزيز» للتعامل مع الاحتياجات الإدارية لإمبراطوريته، والذي أخذ شكله النهائي خلال فترة حكمه، تزودنا بملخص واف عن تفاصيل سجل النشاطات التي قام بها «عبد العزيز» والتي تعرضنا لها في هذا الفصل من الكتاب. وعليه جاء نظام الأقاليم وترتيبات مهام كبار الرسميين في الحكومة التي آلت من بعده إلى ابنه «سعود» على الشكل التالي :

اسم الإقليم	اسم الحاكم	اسم القاضي
عسير تهامة	عبد الوهاب أبو نقطة	–
الحجاز	عثمان بن عبد الرحمن المضايفي	–
عُمان	صقر بن راشد من رأس الخيمة	–
الأحساء	سليمان بن محمد بن ماجد	–
القطيف	أحمد بن غانم	–
الزبارة والبحرين	سليمان بن خليفة	–
وادي الدواسر	ربيع بن زيد الدوسري	سعيد بن حجي (الحوطة)
الخرج	إبراهيم بن سليمان بن عفيصان	محمد بن سويلم
المحمل	ساري بن يحيى بن سويلم	–
الوشم	عبد الله بن حمد بن غيهب	عبد العزيز بن عبد الله الحسيني
سدير	عبد الله بن جلاجل	حمد بن رشيد العريني
القصيم	حجيلان بن حمد (بريدة)	عبد العزيز بن سويلم
جبل شمر	محمد بن عبد المحسن بن فايز بن علي	–
الدرعية	–	حسين بن محمد بن عبد الوهاب
الإقليم التابع للإمام	–	عبد الرحمن بن خميس
المجمعة منيخ	تحت حكم سدير	محمد بن عثمان بن شبانة
الحوطة، الحريق، الأفلاج	تابعة للخرج	سعيد بن حجي (الحوطة)
بيشة	سالم بن شبكان	–
رنيه	مسلط بن قطنان	–
تربة	حمد بن يحيى	–

ملاحظة : الفراغات التي يشار إليها بخط (–) تدل على أنه لا يوجد شخص يشغل ذلك المنصب بشكل دائم. وعادة كان مثل ذلك المنصب يشغل من قبل القاضي الذي يتم إرساله من قبل القيادة العليا لمدة عام أو نحوه.

openkandi.com